

مذهبه فى الشعر

قال خليل مطران فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه متحدثاً عن

شعره :

« عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية فى مجارة الضمير على هواه ، ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامهما أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها إلا ما فاتنى علمه أو تجاوز إدراكى فهمه ، ولم أكن مبتكراً فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى ما لا يقاس إليه فعلى ؛ فإنهم توسعوا فى مذاهب البيان توسع الرشد والحزم ، وجاريتهم فى تصريف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم .

فيا هؤلاء ، نعم هذا شعر عصرى ، وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر ، مزية زمانه على سالف الدهر .

هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت الفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

كذلك حاولت أن أصنع شعري وأعرف أنني لست من العلم واقتدار
الفكر فى المكان الذى يبلغنى منه أوفى المرام ، ولكننى تيقنت أن ما أردته
به من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما أبتغيه من الأثر ،
وكفى بذلك سروراً لى ورضى ، إلى أن يجيء فى زمانى أو بعدى من
يدرك من طريقتى الشأو الذى قصرت عنه ويصل إلى المقام الذى لم أدن
منه .

على أنني أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة - ولا أعنى
منظوماتى الضعيفة - وهو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال
جميعاً ، وللدلالة على صعوبة الوصول إلى الإتقان فى مثل هذا النوع من
النظم نشرت فى هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبى وعدة قصائد
أخرى ، كان فى وسعى أن أضرب عنها صفحاً وأن أكتفى بما أستجيده من
قولى ولا آخذ على نفسى فيه شيئاً ؛ غير أنني آثرت أن يدارجنى القارئ
مدارجة على كونها غاية فى الإيجاز تمثلنى لديه تمثيلاً إجمالياً فى كل حال
مررت بها من أحوال هذه الطريقة ؛ وليس أكثر شعري هذا بين الطرس
والمداد إلا مدامع ذرفت وزفرات صعدتها وقطعاً من الحياة بددتها ، ثم
نظمتها فتوهمت أنى استعدتها .

على أنني لم أدخل إلى الآن شعري من كل ما آخذ عليه السابقين
بسيرى على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة ، ولكننى أرجو أن أقدم على
ذلك فى المستقبل إن كان فى الأجل فسحة » .

ماذا يعنى مطران بهذا الكلام الذى ألقاه على الناس عام ١٩٠٨ ؟
ماذا يعنى بقوله : « سأجارى الضمير على هواه والوجدان على مشتهاه ،
موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب » ؟ .

إنها الثورة على أوضاع الشعر العربى والخروج على ما تواضع عليه

ألبستها من أدمعى ومن دمي هذه الحبر
قشبية غريبة عصرية نسج مضر

وكان لمطران ما أراد من أثر في معاصريه ، فالتف حوله تلاميذه
ومريدوه وتابعوا طريقته ودعموا مدرسته في الشعر العربي ؛ بل لانعدو
الحقيقة إذا قلنا إن مطران قد علّم جيلاً من الأدباء ؛ ولعل الدكتور
أبا شادي خير معبر عن رأى هذا الجيل بما ذكره في ديوانه « أنداء الفجر »
عن مطران :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنسانى وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ
تعهدنى صغيراً وبقيت أمتدى بهديه ، وأثره فى شعرى أثر عميق ، لأنه
يرجع إلى طفولتى الأدبية ، ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى ؛ وإذا كان
استقلالى الأدبى متجلياً الآن فى أعمالى فهو فى الوقت ذاته يمثل الاطراد
الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ
العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسى الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار
الصبى وإلى معلمى الأول بحنان عميق » .

وإذا كان لمطران مدرسة فى الشعر فإنه لم يكن صاحب مذهب فى
الفلسفة ، وما ورد فى أشعاره فى هذه الناحية لا يعدو أن يكون معانى
معادة طرقها الشعراء من قبله كقوله :

هم فجر الحياة بالإدبار فإذا مرّ فـهـى فى الآثار
والصبى كالكرى نعيم ولكن ينقضى والفتى به غير دارى
نعم المرء عيشه فى صباه فإذا بان عاش بالتذكّار

أو قوله وقد رام إظهار هوان شأن الإنسان وهو يخاطب فراعين مصر
بناة الأهرام :

يا أيها الموتى ألم يسمعكم صوت المنادى صاعداً مردداً
 قوموا انظروا السوقة فيما حولكم تدوس هامات الملوك همداً
 قوموا انظروا أجسادكم معروضة فى مشهد لمن يروم المشهدا
 بعث به يسألكم حساب ما قدمتم من راح منا واغتدى
 لم يغنكم منه البناء عالياً والأرض نهبا والملوك أعبداء
 وكانت هذه الأشعار الفلسفية تغلب عليها صبغة الاستسلام لقدر
 الله وتصارييف الحياة كقوله :

فإذا وجدت الأمر مقد ضياً أسرك أم شجاك
 وعلمت أن الله يب لو خائفه كما بلاك
 ووثقت أن عظيم حز نك إنما يدمى حشاك
 سلم إلى تلك الجلا لة فهى من عال تراك
 سلم وقل يا رب إن رضاي ما فيه رضاك
 فاجعل شقائى نعمة لابنى وسعداً فى حماك
 هذا هو السنن القويم فكل أساك إلى تقاك

ومطران فى سبحاته الفلسفية هذه واسع أفق التفكير كبير القلب ،
 يشمل بنظرته الإنسانية جمعاء دون النظر إلى اختلاف فى المذاهب
 أو الأديان أو الأجناس .

وهاك مثلاً من هذا التفكير الفلسفى العاطفى فى قصته الشعرية
 (الطفل الطاهر) ، وهى من أروع قصصه الشعرية التى تنبع من عاطفته
 الإنسانية العميقة ، وفيها يثور على أحد رؤساء المذاهب الذى أصر على
 إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تك هذا الإبطال لألحق بولدهما البريء
 العار ، وكان الزوج المسيحى تزوج على غير مذهبه الأصلى :

يا طفلُ قلب طرفك المتردداً أو ما ترى شبحاً عبوساً أسوداً
متجسساً لك من وراء ستار
هذا أسواء إليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب النار
زعم الإله يريد مثلك مذنباً من يومه ومـعاقباً ومعدباً
فى الغيب قـبل مظنة وسرار
رسل المسيح الشاربين دماءه الآكلين بلا تقى أحشاءه
المولين عليه كل نـهار
الله أوحى فكرة هى دينه فمن اهتدى هى نوره ويقينه
أو ضلّ فليبحر بـغير منار
نزلت على الفادى الأمين الشافع كلماً ثلاثاً تحت لفظ جامع
قدسية النفحات والآثار
الحب فى المعنى العميم الكامل معنى المراحم والفداء الشامل
بالبر للأعداء والأنصار
لا تنقضوا بيتاً لدى تكوينه وحذار من يتم الصغير بدينه
وحذار من يأس الهضم حذار
هذى المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن إلى مدى
والملتقى فى مصدر الأنوار

* * *

شاعريته

لا شك في أن مطران كان له خيال واسع مبتكر ونفس شاعرة شديدة الحساسية انعكست في مرآتها الصافية أحداث عصره وانفعالات نفسه .

كان له وجدان مرهف سريع التأثر بما تقع عليه العين وما يعترض طريقه في الحياة ، فيترجم عما يحسه بشعر بالغ في الروعة لأن وراءه كنزاً لغوياً عظيماً ، ولذا فكثير من شعر مطران تدرك في تضاعيفه جودة الصنعة الفنية ، من جزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وإحكام القافية ، وقد قيل إن مطران كان يشقى شقاءً مرّاً في صياغة الشعر وإفراغه في قالب خاص ، فالكلمة عنده لها قدرها ، والجملة لها قيمتها ، وكان يحرص أشد الحرص على انسجام موسيقاها وتناسب روابطها .

وإن الأمثال كثيرة لا سيما من هذا الشعر الغنائي المنتشر في ديوانه ، والذي تكاد تحس موسيقى ألفاظه كقوله :

حسناء لكن تفور	بادٍ عليها الفتور
لا تكسر الجفن إلا	وقلب صبّ كسير
ولا تبسم إلا	وجفن باك يمور
ولا تلفت إلا	وجيرة الحى صور
يا قرّة لعيونى	فى الصدر منها سكير
كم جئتم مستزيراً	وطيفكم لا يزور
إن كان صبرى قليلاً	فإن وجدى كثير
وما المحب صدوق	فى الحب وهو صبور

وإن الكلمات لتكاد تهتز طرباً لما حواه تركيبها من موسيقى لفظية
عجيبة باستعمال اللام المكررة فى قوله :

القلوب والمقل هن للهوى رسل

لسن للهوى عللاً فى الهوى لها علل

أو قوله مستعملاً حرف الراء المكررة :

سررت فى العمر مره وكنت أنت المسره

كانت حياتى روضاً وكنت فى الروض نضره

وكان غصنا شبابى وكنت فى الغصن زهره

وكان فكرى سماءً وكان حـبك فجره

وكان لحظك يهدى إلى بيـانى سحره

ويغلب على شعر الشباب الروح الابتداعية التى تغلب العاطفة على
العقل ، وقد أخرج لنا مطران فى تلك الحقبة من حياته شعراً فى
الصدارة من الشعر الغزلى للعصر الحديث أفردنا له مكاناً خاصاً من هذا
البحث .

* * *

شعر الطبيعة وشعر القصص

أما شعر مطران فى الطبيعة فسيماه الحب العميق الذى يحسه الشاعر نحو الطبيعة الخالدة إلى حد التفانى فيها والامتزاج معها ، فلا يعود هناك عنصران مختلفان بل شخصان من عنصر واحد أو روحان تتناجيان ، فاستمع إليه يتساءل عن صديق صباه النهر :

والنهر هل هو لا يزال كما كنا لذلك العهد نألفه

يسقى الغياض زلاله شيمًا ويزيد بهجتها تعطفه

يطغى حيال السد أو يجرى

متضايقًا آنا ومنفرجًا متخللاً خضر البساتين

متهللاً لتحية الشجر متضاحكا ضحك المجانين

لملاعب النسمات والزهر

وهكذا فالطبيعة دائماً لديه روح حية يخاطبها وتخاطبه ويحدثها

ويتحدث عنها وهى تشركه شعوره وعواطفه :

وفى الهواء حنين تذوب منه الصخور

وللنسيم حديث على المروج يدور

وللأزهار فكر يرويه عنها العبير

وفى قصيدة أخرى نراه يبعد فى الخيال فيتوهم قصة حب بين وردة

وزهرة من زهور الزنبق ويرويها فى شعر بلغ منتهى الرقة :

فطفت على الأزهار فى أمن نومها أنبهــــــــــــــــها جذبا إلى فتجفلُ

أحاول سلوانا بتشكيل باقة فأقتل منها ما أشاء وأثكل

وما كنت من يجنى عليها خلائقاً
إلى أن بدت لى وردة مستكينة
لها طلعة الجاه المؤثل والصبى
تلوح عليها للـكآبة والأسى
ويكسبها معنى الحياة ذبـولها
مليكة ذاك الروض جاور عرشها
بنية عفواً عنها فكلاهما
فلا تسبقى سيف القضاء إليهما
حبيبان سرا ساعة ثم عوقبا طويلاً
لقد جاورت هذى العروس أليفها
فكان إذا مرت به نسيم الصبا
يداعبها جهد الصبابة والهوى
ويرشف كل من جبين حبيبه
ولكنه لم يلبث العود أن قسا
فشق عليها بيـنه وهو جارها
وقليل فى ديوان الخليل الوصف الواقعى للطبيعة كوصفه لصيف
الصعيد وحره :

أوقد الصيف فى الصعيد لظاهُ
وغدا الناس بين جو كثيف
وفلاة كأنما الرمل فـيها
وكان المياه فى النيل تجرى
فأجف الحقول والآجاما
مترد من الغبار غماما
شرر مدّة لمعة واضطراما
بخطى أبطأت ووجه تعامى

وقد أكثر مطران من كتابة الشعر القصصى ، وكان لنا منه فتح جديد
فى عالم الشعر العربى ، وقد اتخذ هو منه وسيلة للتعبير عن أحاسيسه
الإنسانية وعواطفه الصادقة لبنى الإنسان ، فاستمع إليه باكيا متفجعاً وهو
يروى قصة العوادة المتسولة التى ماتت مريضة بعد عام من زواجها فى
قصيدته (وفاء) وذلك على لسان زوجها :

فجعت فؤادى يا زمان بخطبها
فليتك مرزوء الفــــؤاد بأفجع
عروس لعام لم يتم صرعتها
ولو شئت لم تضرب بأمضى وأقطع
فباتت على مهد الضنى ما لجفنها
هجوم ولا جفــــنى يقرُّ بمهجع
وكانت ربيعا لى فأقوت مرابعى
من الزهر والشدو الرخيم المرجع

إن مثل هذا الشعر ينم عن شعور صادق بالمشاركة فى السراء
والحزن ، وإنك لتجد منه أمثلة كثيرة كقصة (الجنين الشهيد)
و (المنتحر) و (الطفل الطاهر) .

وليس كل شعر مطران القصصى أو قصصه الشعرى فواجه ومآسى ،
بل هناك نواحٍ مشرقة مستملحة أجاد فيها الدعابة الخفيفة الراقية كقصة
(إن من البيان لسحرا) وهى قصة شاعر عذب الحديث ساحر البيان نهيت
الفتيات عن الاستماع إليه ، لكنهن لم يعبأن بالنهى وانسللن إليه خفية
فأخذ يقص عليهن من القصص ما سحر ألبابهن وأوقعهن فى أسر بيانه :

سر العذارى منبىءٌ عن شاعر للحى زائرٌ
 فقصدنه وسخرن من زجر الأميمات الزواجر
 ليرين فتنته التى تغوى العفيفات الحرائر
 فوجدنه رجلاً مليب حاً خلقه حسنَ الظواهر
 لا شىء يفتضح النهى فيه كما ادعت النواهر
 فسألنه إنشاد شىء من بدائعه الحواضر
 فأطاعهن ومن ترى يعصى الجميلات الأوامر
 فعقدن فيما حوله عقداً فريداً من جواهر
 وتناول الرجل الربا ب وفكره فى الغيب ناظر
 وأثار فى الأوتار تغ ريداً كأن العود طائر
 ثم انبرى يروى روا يته وتتبعه الخواطر

* * *

ثم اثنتين مكفكفاتٍ دمعهن عن المحاجر
 متلفعات نحو من هو مثله غزلٌ وشاعر
 كل تقول بلحظها يا قيس إنى بنت عامر
 تالله أنصفت النوا صح ليس هذا غير ساحر

ولقد وسعت شاعرية مطران الفياضة كل فنون الشعر المنوعة ، فله
 فى الوطنية قصائد كثيرة، كان دائم الحنين إلى وطنه الأول الشام والفخر به

إيه آثارَ بعـلبك سلامٌ بعد طول النوى وبعد المزار
 ووُقيت العفاء من عرصاتٍ مقويات أو أهلٍ بالفخار
 ذكرينى طفولتى وأعيدى رسم عهد عن أعينى متوارى

* * *

أهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفنى بقية الأدهار
لکم الأرض خالدين عليها بعظیم الأعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيا لم يسخر لقوة من بخار
وركبتم منه جواداً حروناً قلقاً بالمرس المغوار
وهو يردد هذا الشعور فى كثير من قصائده لاسيما إذا أحس آلام
الاغتراب :

فذكرت مغتربى فتياً عن عشيرى الأوفياء
بولاء طفل لم يذق ألم الفطام من الولاء
ولقد كان لا ينسى واجب الوفاء لوطنه الثانى الذى أحبه وأخلص
فى حبه الولاء .

ولم يكن مطران متخلفا عن عصره ، بل كان يجد مادة شعره فيما
حوله من بيئة وأحداث ، ولذا فقد سجل التاريخ حقبة من الحياة بكل ما
فيها حتى مخترعات العلوم .

ولا شك أن الكشف عن أشعة (رنتجن) كان حدثاً فى العلوم
خطيراً ، وقد سجله مطران فى شعره حيث قال :

فحدثتها عن ضياء عجيب يسر برؤيته الزائر
له زرقاء الماء لكنه شرار من النار مطاير
كمنتشر من غبار الزمر د يحمله لهب ثائر
كأن به للعيون عيوناً فكل خفى به ظاهر
يرينا الجسوم أضالع جفت وزايلها حسننها الناضر
هياكل محكمة شادها لطيف لما شاءه قادر

وإذا أضفنا إلى شدة حساسية الخليل عمق وفائه للأصدقاء علمنا
السر الكامن وراء هذه القوة الخارقة لمراثيه وهذا التفجع الصارخ فيها :

لقد قال يرثي المطران بولس سليمان ، مطران شرق الأردن :
يدعوك معتل وأنت بعيد بالأمس كنت تعودته وتعيد
عز العزاء على السقيم يلج في نسماته التصويب والتصعيد
أبنا المروءة إن خطبك خطبها أو لم تفارقها وأنت شهيد ؟
رزئتك طائفة يحار محبها أنى يعزيها وأنت فقيد
وكان مطران إذا بلغه نبأ وفاة صديق من أصدقائه زلزل كيانه للنبا
وبكى صديقه بالدمع السخين قبل أن يرثيه بالشعر الرصين ، وهو يحس
ألم الفراق لما سيفقده في الصديق الراحل من صداقة ومن عشير يشعر معه
بدفء العاطفة الذي يجد في طلبه المغترب ويحرص عليه ، وهو ما تحسه
إذ تطالع رثاءه لنقولا توما :

وقف الزمان فما لوعدك موعدُ وعفا المكان فما لعهدك معهدُ
هى طلعة لك فى الحياة وغيبة كالظل إذ يبدو وإذ يتبدد
بالأمس كنت وأمس فى أفق التقى شقَّ الحجاب فكان منك المولد
مات الودود الأريحي ولم يخب يوماً لديه الصاحب المتودد
فى غربة قفراء لم يلمهم به سكن هناك ولم يـعده العود
يا رب سلمنا وإن قطرت أسى منا حشاشات وشقت أكبد
أما رثاؤه لمصطفى كامل فقد غلبت عليه الروح الوطنية وأحس
بفقده كخسارة وطنية كبرى للشرق العربى قبل أن يفقده كصديق :

أعلى مكائنك الإله وشرفا فأنعم بطيب جواره يا مصطفى
اليوم فزت بأجر ما أسلفته خيراً وكلّ واجد ما أسلفا
وجزيت من فانى الوجود بخالد ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

فوردت وردك فى الخلود منعماً
لم تُلف قبلك أمةً فى مشهد
يمشون من حول الجنازة ضائقاً
بحر من الأحياء نعيشك فوقه
يبكون فى آثاره العلم الذى
جزع النصارى واليهود لمسلم
بكوا المرجى فى خلاف عارض
واشتد رزء المسلمين وحزنهم
من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
قف أيها الناعى عليه جموده
والأرض مائدة عليك تأسفاً
يذرو الرجال به المدامع ذرفاً
بهم الرحيب من المسالك مصرفاً
فلك يظلمه اللواء مرفرفاً
آثاره من رفعة لا تقتضى
هو خير من والى وأوفى من وفى
ليزيل ذاك العارض المتكشفاً
لما مضيت ولست فيهم مخلفاً
يُعلى لهم صوتاً وينشر مصحفاً
فلقد تجاوزت الهدى متفلسفاً

* * *

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وكأنتى بالقبر أصبح منبراً
مصر التى غسلت يداك جراحها
مصر التى أحببتها الحب الذى
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفاً
وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنتى بك موشك أن تهتفا
بصبيب دمعى جارياً مستنزفاً
بلغ الفسداء نزاهة وتعففاً
من شملها ما لم يكن ليؤلفاً

* * *

من كان أقدر منك تصريفاً لما
من كان أظهر منك خلقاً جامعاً
من كان أزهد منك إلا فى الذى
يعبى الحكيم مدبراً ومصرفاً
فيه مهيب الطبع والمستظرفاً
يجدى البلاد فتبتغيه ملحفاً

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى على اللواء حمى المروءة والوفاء
يا من نعى تلك الفضائل والعلی أغدت معالمهن قساعاً صفصفا
لا لا وحقك يا شهيد وفائه ورجائه كذب النعى وأرجفا
ما أنت بالرجل الذى يمسى وقد ملئ الوجود به ويصبح قد عفا

* * *

والآن نحن لدى ثراك نحججه متلهبين تشبواً وتشوفا
نشنى وهل يوفى ثناؤك حقه وبأى ألفاظ المحامد يكتفى
لقد أطلت الوقوف على هذا الرثاء لما يبدو فيه من روح الخليل
السمحة التى تعالت على الصغائر ، ولما فيه من تسجيل رائع لشعور
المصريين عامة لفقد مصطفى كامل ، وما فيه من دفاع مجيد عن الفقيد
وآرائه ، ورد على خصومه وشائثيه ، وإثبات الحقائق تاريخية من تاريخ
مصر كدنا أن ننساها .

بقي كلمة أخيرة فى الحديث عن شاعرية الخليل ، وهى أن الخليل
عندما تقدمت به السن قل فى شعره جموح العاطفة ، وغلب عليه التعقل
والهدوء ، اللهم إلا أن تثير شجنه ذكرى سانحة أو زهرة باسمه حتى قال
فى آخر عهده :

فاعدروا ضعف شاعر يتغنى بتراجيع من بقايا الليالى

ولذلك قلت استعارته المفاجئة وتشبيهاته الغريبة وتحليقه الجامح فى
سماوات الخيال ، واستحالت النظرة الابتداعية المتشائمة إلى ابتسامة
فيلسوف يرقب أحداث الحياة ويسجلها .

ومع ذلك ، فقد ظل مولعاً بالتصوير الشعرى يقدمه فى مراثيه فى

شخص قليل ظله طاوى الحشى
يمشى فلا تتوازن الكتفان
حفت ملامحه بمسحة أدمة
هى من « منا » إن شئت أو عدنان
وبعارضيه الهـابطين ولمة
شعثاء لم تسلم من الثوران

المرأة في شعره

والشعر العربى القديم فى المرأة لم يكن يعنى غالباً إلا بمفاتن جسدها ، وأنت لا تكاد تميز بين جميلات الشعر القديم لأنهن كلهن ذوات وجوه كالبدور أو الشمس وشعر كالليل ، وجبين كالصبح ، وخذ كالورد . . . إلخ هذه الأوصاف الغامضة الموحدة .

والمرأة فى الشعر القديم غالباً ما تكون متهمة ، لأنه (ليس لمخضوب
البنان يمين) ، أو كما قال المتنبي مشبها الدنيا بالمرأة :

فهي معشوقة على الغدر لا تحفظ عهداً ولا تتم وصلاً

شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنت اسمها الناس أم لا

أما مطران فقد رد للمرأة العربية كرامتها واعتبارها ، وأشاد بمكانتها من المجتمع في شعره حتى قال :

إن لم تكن أم فلا أمة وإنما بالأُمّهات الأُم

وأول ما يلفت النظر فى شعر مطران أنه يعنى بخصال المرأة قبل جسدها ، ويهتم بجمال عقلها قبل جمال جسمها ، وما أروعها فى ذلك حين يقول :

أذاك الجبين وبلوره	يمثل أفكارها الخاطره ؟
أتلک العيون وأنوارها	مراء لأخلاقها الباهره ؟
أتلک الشفاء وما قبلتها	سوى الأم واللذة الزائره ؟
أذاك القوام ومن حسنه	تميل الغصون له صاغره ؟
أذاك العفاف ومما صفا	تقربه المقل الناظره ؟

ثم هو ارتقى بالمرأة من المثالية المشوهة الغامضة فى وصف الجمال إلى واقعية فنية واضحة المعالم دقيقة الخطوط ، فتراه يقول :

لها شعر كالليل يجلو سواده	بياض نهار يبهر المتوسما
وعينان كالنجمين فى حلك الدجى	هما نعمة الدنيا وشقوقتها هما
وأهداب أجفان تخال أشعة	مصطفة غراء تعكس عنهما
ومنفرج عن خالص العاج مازن	كأن الهوى قد بث فيه تنسما
وخصر إليه ينتهى رحب صدرها	وقد دق حتى خيل بالثوب أبرما
فإن أقبلت فالغصن أثقله الجنى	فمال قليلاً واستوى متقوما

وقد عرف مطران المرأة عن الطريق الطبيعى . . طريق الحب . . لقد أحب مطران مخلصاً ، وملاً الحب شغاف قلبه وفراغ حياته ، وصبغ تفكيره ، ولون شعره ، حتى إنه ليخيل إلى أن الحب كان أساس حياة مطران وأن حياة مطران لم تكن إلا دعوة متصلة للمحبة .

وهو القائل :

سوى الحب لا يشفى الفؤاد المكثماً
ولا يهنئ العانى وإن كان مؤلماً
وما زال ذو القلب الخلى من الهوى
كظمان لا يروى له مورد ظما
هو الدهر كالتيار يكتسح الورى
بليل من الأحداث أعكر أهيماً
فما أسعد الروحين أن يتلاقيا
ويقتسما فيه الأسى والتنعم
كما يتلاقى فى طريق مخوفة
غريبان نالت شقة السير منهما
وكم عاشق يسلو رزاياه بالهوى
وقد يجتلى وجه الهناء توهما
كسالك وعر راقه حسن كوكب

فأرجله تدمى وعيناه فى السما
ولعل قلب مطران قد هفا لكثيرات من النساء فُقال فيهن شعراً ،
لكنه لم يتعلق سوى بواحدة ، ولا شك فى أنه عرف غيرها ، لكنه لم
يحب سواها ، ولم يخلص الهوى إلا لها .

وقصة هذا الحب طويلة ، وحوادثها منتشرة فى ديوانه ، ولو أنه أفرد
لها فى الجزء الأول قسماً خاصاً بعنوان (قصة عاشقين) ، لكنى أعتقد أن
هذه القصة أطول بكثير من هذا القسم المحدد من الديوان . إنها الشعلة
التي تأججت فى صدره يافعاً حين التقى بهذه الحبيبة ، وقد لسعتها نحلة
فقال :

أفتدى من لسعتها	نحلة تطلب وردا
ظنت الوجنة ورداً	فأنت ترشف شهداً

وسعد بجوارها دهرًا قصيرًا له أثر في حياته كبير ، وذكرى لم تمحها
الأيام . . ذكرى ذلك الحب الساذج واللهو البريء :

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً بـزحلة كله غنم
إذ يلتقى في الكرم ظلان يتضحكان ويأنس الكرم

* * *

هل تذكرين بلاعنا الحسناء حين اقتطف أطايب العنب
نعطى ابتسامات بها ثمنًا وبنا كنشوتها من الطرب
لكن الدهر لم يغفل عن هذه السعادة ، فاختطف هذى الحبيبة
سريعاً وخلف لمطران لوعة وأسى صاحباه ما بقى من العمر ، وكأني بالدهر
قد غار من هذه السعادة كما يقول مطران :

كنا كغصني دوحه نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا
بل حبستين بزهره نمتا وتساقتا لما تعاشرقتا
نار الغرام مع الندى العذب تمت سعادتنا على قدر
فسطت عليها غيرة القدر أودت معاً بالعين والأثر
واستبقت الباقي من الخير ذكرى وتبصرة لذى لب
ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللفظ والأمل

وشبابها وطهارة القلب

وقد هاجر مطران من موطنه بسبب هذا الرزء ، كما يشير في
قصيدته « مشاكاة » :

أرى مثل سُهدي في الكوكب أحلَّ به مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامي من وجده ويهرب من مهده مهربي ؟

ونحن ناز هذا الفضاء الرحيب

وتأججت نيران هذه الشعلة بفعل الفراق ، فالهبت مشاعر مطران ،
وأشقته دهرًا طويلًا ، حتى داخل نفسه اليأس ، واصطبغت نظرتة للحياة
بصبغة التشاؤم ، وعظم حزنه على حبيبته ، حتى خال كل الوجود
حزينًا . . فانظر إليه يصف الغروب الذي تغنى به الفنانون والشعراء :

يا للغروب وما به من عِبرةٍ للمســــــــــــتهام وعبرة للرأى
أو ليس نزعاً للنهار وصـرعة للشمس بين جنازة الأضواء ؟
أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلـــــــــــــماء ؟
أو ليس محوً للوجود إلى مدى وإبادة لمعــــــــــــالم الأشياء ؟

بل حتى الموت تمناه لنفسه فقال :

من بالمنـون لواله صبّ ذاكى الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزيئة فيك أودت بى فنجوتُ من ألى ومن كرى
وفزعت من نفسى إلى ربى

وهو يردد نفس المعنى في قصيدة أخرى :

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

وظل مطران حافظاً لعهدده ، ذاكراً لحبه ، وإذا كان حزنه قد تناقص مع الأيام إلا أن شعلة الحب بقيت مضيئة في قلبه تنعكس أشعتها على أشعاره رقة وعدوبة .



أعماله

قال الخليل :

ويظل المرء فى دنيا	هُ من شغلٍ إلى شغلٍ
يُجدُ منى ويخلقها	على الأعوام كالخلل
ومن سنة إلى سنة	يعاودها بلا ملل
فمن أمل إلى يأس	ومن يأس إلى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى	ولا مجد سوى العمل

ولقد تمثل الخليل ما قال ، وعاش حياته مجداً فى العمل ، فأنتج كثيراً فى الشعر والأدب برغم مشاغله فى دنيا الصحافة والمال وميادين الاقتصاد المختلفة وإدارة المشاريع المتنوعة .

استطاع الخليل برغم هذه المشاغل أن يهذى الأدب العربى ترجمة العيون من أعمال أدباء الغرب (كليالى ألفريد دى موسيه) ، ورواية (هرنانى) لفيكتور هيغو ، وترجم لكورنى مسرحيات (السيد) (و سينا) و (بولكيت) ، وترجم لراسين رواية L ' incomparable Bérénice ولشكسبير رواياته الخالدة (هملت) و (ماكبث) و (عطيل) و (تاجر البندقية) و (الملك لير) وغير ذلك من الترجمات كما أصدر كتابه (مرآة الأيام) .

وكتب فى غير الأدب فترجم « تعليم الإرادة » لبايو و « التاريخ الطبيعى » لفيكتور ديرى و « الموجز فى علم الاقتصاد » و « الأحوال الزراعية فى القطر المصرى » .

وأخيراً أصدرت لجنة تكريم الخليل ديوان شعره كاملاً ، فما أحرى الخليل أن يوصف بقوله :

أبقيت ذكرك فى القلوب كريماً وقضيت حياً وارتحلت مقيماً



على محمود طه

يا مرسل النغم العالى صدى ورؤى ينصب فى أذن الدنيا وينساب
غنت به ضفتا الوادى ورجعه من ألسن الشرق أشهاد وغياب^(١)
أى على ! يا شاعر الجندول الحزين ما زالت أغانيك تملأ فراغ الكون
وتتردد على كل لسان ومازالت ذكراك ماثلة أمام قلبى فى كل وقت تزكيها
هذه الأغنيات الحاملة التى ترددها إذاعات العالم فى كل ساعة من نهار وليل
ومازالت تحتل مكانك من مدرسة الشعر العربى الحديث التى كنت أحد
دعائمها وتلاميذها المخلصين بل كنت أبرزهم طرا وأعمقهم أثرا وأبعدهم
ذكرا .

وكم نفس عليك هذه المكانة من عالم الشعر الكثير من الشعراء
والأدباء وغيرهم وكم من قائل : « كيف يسلك هذا الدخيل مسالك
الشعراء ؟ » وكأن العاطفة الفياضة وقف على قوم دون آخرين أم كأنه ليس
للمهندس أو الطبيب أو غيرهما من أصحاب المهن فى الحياة أن يعبروا عن
مشاعرهم أدبا أو شعرا .

وكم من الناس حالت دونهم ظروف الحياة وبين ما يبتغون من عمل
فى الحياة أو طريق . . وهل على طه إلا أحد هؤلاء الذين حولتهم ظروف
العيش إلى غير وجهتهم الأولى ؟ .

لقد ولد ببلدة المنصورة فى شهر يولية سنة ١٩٠١ فى بيت من
بيوتها العريقة إلا أن أباه كان تاجرا غير ذى ثراء وقد توفى عنه وهو فى
التاسعة من عمره فكانت وفاته صدمة أليمة للطفل ولأسرته إذ أثرت على
مورد دخلها تأثيرا كبيرا ولعلها أذاقته ضروبا من الحرمان الباكر الذى أثر

(١) من رثاء حسن كامل الصيرفى للفقيد .

فى حىاته وشعره ٠٠ وأول هذه الآثار وأعماقها التحاقه بعد أن نال شهادة الدراسة الابتدائية بمدرسة الفنون والصناعات الخديوية ببولاق ليختصر طريقه إلى الحياة العملية .

وقد عمل بعد تخرجه فيها كمهندس للمباني بمصلحة المباني الأميرية ثم مديرا لقسم المباني والمعارض بوزارة التجارة والصناعة ، فوكيلاً لمتحف فؤاد الأول الزراعى فمديرا لمكتب رئيس مجلس النواب .

كانت شخصية الشاعر المرحلة الجذابة تضى على كل وظيفة تقلدها مركزا ممتازا مهما صغرت وتحيطه هو بالإكبار والتقدير لما امتاز به من خلق جميل وتواضع عف وحديث عذب .

وكان عمله كوكيل لدار الكتب المصرية آخر منصب تقلده فى حياته الدنيا ولم تنقض على التحاقه به أشهر معدودات حتى اختطفته يد المنون فى السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٤٩ .

بيئة الشاعر

ولد على طه ومات فى النصف الأول من القرن العشرين وما أن شب عن الطوق وبدأ يتلمس طريقه فى الحياة حتى وجد أن كل ما حوله فى الوطن ثائر على وضعه ٠٠ هذا خليل مطران يتزعم ثورة فى الشعر وهؤلاء طه حسين والعقاد والمازنى يحاولون هدم ما تواضع عليه القوم وما قدسوه من وظائف الأدب العربى وأوضاعه بينما قاسم أمين يتزعم ثورة اجتماعية داعيا نصف الأمة للخروج إلى العمل والسفور بعد طول حجاب ٠٠ وماهى ذى أصداء دعوة محمد عبده للتجديد فى المجال الدينى بل ها هى ذى الأمة كلها تثور ضد الغاصب المفتأت على حقوقها وجميع قيم الحياة فى القطر تتغير وتضطرب أمام ناظره .

يرى الشاعر كل ذلك ويلمسه ويدرك بعقله وعاطفته حيرة بيئته وتذبذبها بين الأخذ بمدنية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب وبين

الاحتفاظ بمقوماتها الشرقية وتقاليدها الموروثة وبين الاندفاع فى تيار
اللا دينية الغربية أو الإبقاء على روحانية الشرق الكريمة ويرى النساء
المصريات يحاولن نزع الحجاب عن وجوههن لكنهن يشفقن من ذلك حياء
ويخشين النقد والتجريح . . فيقع هو نفسه فى حيرة أو بالأحرى تنعكس
على وجدانه الحساس صور هذه البيئة .

وحين يتحدث الدكتور طه حسين باشا عن ديوان « الملاح التائه »
يصور لك حيرة الشاعر قائلا « فأما معرفتى لشاعرنا المهندس قد أرضتني
فلأن شخصيته الفنية محببة إلى حقا فيها عناصر تعجبني كل الإعجاب
وتكاد تفتنني وتستهويني فيها خفة الروح وعدوبة النفس وفيها الحيرة
العميقة الطويلة العريضة التي لا حد لها كأنها محيط لم يوجد على
الأرض . . . ولقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة « الله والشاعر »
فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفا ورأيت رجلا لا هو بالشاك
المطمئن إلى الشك ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ولا هو بالمنكر
المستريح إلى الإنكار وإنما هو رجل مضطرب حقا ، مضطرب أشد
الاضطراب يؤمن بالقضاء والقدر ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام
الله ثم يجادل فيها . . يشكو ثم يستسلم ويستسلم ثم يشكو . . .
رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر وأكبر الظن أنه لو استقر لكان
أشقى الناس فهو سعيد بحيرته مغتبط بهيامه مبتهج بهذا التيه الذى دفعته
إليه نفس طموح جدا لأنها نفس شاعر عاجزة جدا لأنها نفس إنسان» (١) .
يبدأ على طه قصيدته « الله والشاعر » التي تمثل حيرته أروع تمثيل
يطلب المغفرة من الله لما زل به اللسان فى سورة الغضب وآلام الحيرة :

لا تفرقى يا أرض لا تفرقى	من شبح تحت الدجى عابر
ما هو إلا آدمى شقى	سموه بين الناس بالشاعر
طغى الأسى الداوى على صوته	يا للصدى من قلبه الناطق
مضى يبيت الدهر فى خفية	شكاية الخلق إلى الخالق
لا تعدنى يا رب فى محنتى	ما أنا إلا آدمى شقى

طردتنى بالأمس من جنتى فاغفر لهذا الغاضب المحقق
حنانك اللهم لا تغضب أنت الجميل الصفح جم الحنان
ما كنت فى شكواى بالمذنب ومنك يا رب أخذت الأمان
ثم يمضى يتلمس الأعدار لأخطائه ونزواته فيقول :

تمردت روحى على هيكلى وهىكل الجسم كما تعلم
ذاك الضعيف الرأى لم يفعل إلا بما يوحى إليه الدم
ومثلما قدرت صورتها فروحك الصوت وروحى الصدى
طبيعة فى الخلق ركبتها وما أرى لى مال بناها يدا
لكنما روحك من جوهر صاف وروحى ما صفت جوهر
أولا ، فما للخير لم يثمر فيها؟ وما للشر قد أثمر ٠٠
تقول روحى إنها ملهمة فهى لما قدرته متبعه
مقودة فى سيرها مرغمة وإن تراءت حرة طيعة

ومع كل فلسفت بأول مخطيء بل إن الخطيئة إرث فى دمائى قديم :
ولم أكن أول مغرى بما أغرت حواء أو آداما
إرث تمشى فى دمي منهما ميراثه ينتظم العالم
لكن هذه الثورة فى القصيدة تنتهى بالشاعر إلى أن يعود إلى ربه فهو
الملحأ من كمال أمر عسير :

ما عرفوا فى صعقات الردى إلاك من غوث ومن منجد
ولا سرى فى الأرض منهم صدى إلا ودوى باسمك الأمد
يقف طه حسين باشا عند هذه المقطوعة من الشعر ليستنتج لنا إن

حيرة على طه مبعثها تردده بين الشك واليقين . . بين الإيمان وبين الثورة على هذا الإيمان بينما يذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات بك فى تعليل هذه الحيرة إلى ما كان يعانيه الشاعر فى صدر حياته من آلام الكبت والحرمان . . الحرمان من الحب والمرأة فى سن لا ينشد فيها الشاب غير الحب ولا يبصر سوى الجمال ولا يسعى إلا إلى اللذة ولا يحس الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوى الرقيق يهتزلها الكون طربا .

ومرجع هذا الكبت والحرمان إلى ظروف البيئة فى الربع الأول من هذا القرن فهذه البيئة سواء فى محيط الأسرة أو المدرسة أو المجتمع تبعث على الانطواء وتدعو إلى التكبيل بكل قيد من القيود ، فالتقاليد الموروثة تفرض على الشباب فرضا بما فيها من نظم عنيفة وأساليب صارمة وكل عبث بهذه التقاليد عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والأذواق حتى إذا خطر للشباب شيء من التجديد فى وسائل العيش ومظاهر الزى وطرائق التفكير كان ذلك فى رأى القائمين على أمرهم خروجا على النظام وثورة على الاحتشام واندفاعا إلى هاوية الغى والفساد وانحرافا عن معانى الفضيلة ومناهج الأخلاق .

وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب سدا هائلا وجدارا منيعا بين الشباب من الجنسين (١) .

ولم يجد على طه ما يفرج عن آلام نفسه سوى إرسال قصائده الحزينة التى يقرضها إلى مجلة « السفور » ، التى كان يشرف عليها الأستاذ الزيات فى ذلك الوقت ولقد تلقى أولى قصائده وعنوانها « الأمسية

(١) بحوث الأستاذ أنور المعداوى فى الرسالة عن على طه .

الحزينة « (١) غفلا من الإمضاء (٢) فصيح ما فيها من أخطاء وقدم لها ببضعة أسطر تنبأ فيها بنبوغ الشاعر ونصح له إن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن وأخذ عليه هذا الروح الحزين الذى يحمل عليه قيثاره المرح والشباب ولكن أنى للشاعر أن يظفر بهذا المرح والزيات نفسه الذى ينصح له لم يستطع الظفر به فى ظروف البيئة المشابهة . . . هذه البيئة الانطوائية ذات المزاج الحزين فالزيات يصف هذه البيئة وأثرها فى نفسه فى المجلد الأول من « وحى الرسالة » فيقول :

« تسألنى لماذا ترجمت ثرتر . . . والجواب عن هذا السؤال حديث والحديث غدا سيكون قصة وليس يعينك اليوم منها إلا ما نجم عنها . قال جيته يوما لصديقه اكرمان « كل امرئ يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن « ثرتر » إنما كتبت له خاصة » .

وأنا سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين . شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعورا بالجمال وقلب زغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ونوازع طماحة ما تنفك تجيش وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك . . . فالطبيعة فى خيالى شعر وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شيء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال وزور نتائج المثل الأعلى ثم غمر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه ملح فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الحالى قد امتلأ وقلبي الصادى قد ارتوى وحسى الفائز قد سكن وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتشر على مدارجه نواضر الورود وترف على جوانبه نوافح الريحان وتزهو على حواشيه ألوان عبقر وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى كأنتى (فوست) على

(١) من رسالة شخصية من الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر .

(٢) كان ذلك عام ١٩١٨ .

جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل فأقام فيه عقبة
اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة على أننى
بقيت على رغم الصدمة حياً ولا بد للحى أن يسير !

تطلعت وراء العقبة انظر الطريق فإذا الأرض قفقر والورد عوسج
والريحان حمض والعرائس وحوش . . . فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق
المؤنس ولكن أين أنشد ما أبغى وحولى من الفراغ نطاق مخيف وأمامى
على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى
لعينى وهذه أرواح قتلاه تتهافت على وهذه سجلات مصارعهم بين يدى
فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى وأقطع بمناجاتهم مراحلى والتمس فى
مواجههم لهواى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ورينيه وأتالا وأدولف ودمينيك وماريون
دلورم ومانون ليسكو وذات الكاميليا وجرازيلا ورفائيل وچان دكريف . .
وتوثقت بأشخاصها صلاتى وتصدت فى زفرائهم زفرائى وتمثلت فى
نهايتهم المحزنة نهايتى ولكنهم كانوا جميعا غيرى نتفق فى الموضوع ونفترق
فى الوضع كالنساء النوادب فى مناحة تندب كل واحدة منهن فقيدها
وموضوع الأسى للجميع واحد . . هو الموت .

فلما قرأت « آلام فترتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا
غير هاتيك الأرواح وأحسست حالا غير تلك الحال .

فنيت فى « جيته » وقادنى إلهامه وروحه وأهبت بلغة القرآن والوحى
أن تتسع لهذه النغمات القدسية فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر
ويزهو على طول القرون . ثم أصبح فترتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب
ونشيد عزاء ورقية هم !! كأنما كان (جيته) يناديها من وراء الغيب حين
يقول فى تقدمته لفترتر : وأنت أيتها النفس . . إذا أشجاك ما أشجاه من
غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه وتلمسى البرء
والشفاء فى أسقامه واتخذى هذا الكتاب صاحبا وصديقا إذا أبى
عليك دهرك أو خطؤك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى
عليك » .

وكان على طه أحد أفراد تلك البيئة فراح فى صدر شبابه ينفث
شكاته الملهة فى أشعاره فهو يقول :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليلى ومازلت غارقا فى شجونك^(١)
مسلماً رأسك الحزين إلى الفكرك
وللسهد ذبالات جفونك
ويد تمسك الصراع وأخرى
فى ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفاسك
لك يطغى على ضعيف أنينك
أنت أذ بليت قلبك الغمض وحطمت من رقيق كبانك

ولعل أبلغ ما قاله معبرا عن شعوره بالوحدة فى مجتمعه قوله :

والأرض ضاق فضاؤها الرحب وختت فلا أهل ولا سكن^(٢)

حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك أنت والزمن

ولقد كان على طه يعانى فى صدر شبابه حرمانا آخر أشد إيلا ما فى
نفس الشاعر الموهوب الذى يحس بمقدرته ونبوغه . . ذلك هو الحرمان من
التقدير الذى يزكى مواهبه ويدفعه إلى الإجادة والإنتاج ومرجع هذا
الحرمان إلى قلة القراء لاسيما هؤلاء الذين يحفلون بالشعر حتى خيل إليه
أن الأمر مرجعه إلى جحود العبقريات فى الشرق :

أيجحد فى الشرق النبوغ ويزدرى ويشقى بمصر النابهون الغطارف؟^(٣)

يجوبون آفاق الحياة كأنهم رواحل بيد شردتها العواصف

كما أن بيئة الشاعر كان لها أثر كبير فى توجيه مطالعته فلقد وجد
كبار أدباء هذه البيئة ممن نهلوا من الثقافة اللاتينية ومعظمهم حينما سافر
فى طلب العلم قصد إلى فرنسا وحج إلى مدينة النور كما يزعمونها
وكانت ترجمة أعمال الأدباء الفرنسيين تغمر سوق الأدب العربى لاسيما
الابتداعيين منهم أصحاب المذهب الرومانتيك وهو المذهب الذى مهدت

(١ ، ٢ ، ٣) ديوان « الملاح النائه » .

البيئة نفس الشاعر لقبوله بل زادته به تعلقا لأنه مذهب يتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة - كعوض عن شعور الوحدة - إلى حد التفانى .

أما اليأس فقد تغلغل في قلب الشاعر الشاب إلى أغوار عميقة لاسيما بعد أن وقف ليوواجه الحياة بمفرده فهالته حقيقتها البشعة وقسوتها العاتية التي لم تأخذها الرحمة فيما صنع له خياله المخلق من عالم مثالي جميل قوضت دعائمه حقائقها المرة .

فاستمع إليه يقدم لقصيدته « التمثال »^(١) نثرا فيقول « الإنسان صانع الأمل ينحت تمثاله من قلبه ومن روحه ولا يزال عاكفا عليه يبدع في تصويره وصقله متخيلا فيه الحياة ومرحها وجمالها ولكن الزمن يمضي ولا يزال تمثاله طينا جامدا أو حجرا أصم حتى تخمد وقدة الشباب في دم الصانع الطامع وتشعره السنون بالعجز والضعف فيفزع إلى صيد أحلامه هاتفا بتمثاله ولكن التمثال لا يتحرك ولكن الحلم الجميل لا يتحقق وهكذا تحتاج الليالي ذلك المعبود وتعصف بالتمثال فيهوى حطاما وهنا يصرخ اليأس الإنساني ويمضي القدر في عمله » .

ويصرخ الشاعر حقا في ختام القصيدة مصورا أقصى درجات اليأس من هذه الحياة الدنيا :

مر نور الضحى على آدمى	مطرق في اختلاجه المصعوق
في يديه حطامه الأمل الذأ	هب في ميعة الصبا المرموق
واجما أطبق الأسى شفتيه	غير صوت عبر الحياة طليق
صاح بالشمس : لا يرعك عذابي	فاسكبي النار في دمي وأريقى
نارك المشتهاة اندى على القلـ	ب واحنى من الفؤاد الشفيق
فخذى الجسم حفنة من رماد	وخذى الروح شعلة من حريق

(١) ليالى الملاح التائد .

جن قلبى فما يرى دمه القـ لانى على خنجر القضاء الرقيق

وفى هذه البيئة المنطوية على نفسها المترددة فى خطوها ونهوضها
المتحفظة فى أوضاعها يلجأ الشاعر إلى الطبيعة يبثها الآمه ويشكو لها
أحزانه ويتخذها رفيقا حنانا يهجع بين أحضانها وينسى أشجانه بين رياضها
وأفنانها ويتفانى فى حبها فاستمع إليه فى نفس القصيدة يقول وقد اتخذ
من الطبيعة رفاقا وشهودا وأصحابا بل وأما حانية عليه :

أقبل الليل واتخذت طريقى	لك والنجم مؤنسى ورفيقى
وتوارى النهار خلف ستار	شفقى من الغمام رقيق
مد طير المساء فيه جناحا	كشراع فى لجة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى اللـ	ل ويجتاز كل واد سحيق
عاد من رحلة الحياة كماعد	ت وكل لوكره فى طريق
شهد النجم كم أخذت من الر	وعة عنه ومن صفاء البريق
شهد الطير كم سكبت أغانيه	على مسمعيك سكب الرحيق
شهد الكرم كم عصرت جناه	وملأت الكؤوس من أبريق
شهد البر ما تركت من الغد	ار على معطف الربيع الوريق
شهد البحر لم أدع فيه من در	جدير بمفرقيك خليق
ولقد حير الطبيعة أسرا	ئى لها كل ليلة وطروقى
واقتحامى الضحى عليها كراع	أسيوى أو صائد أفريقى
أو إله مجنح يتراءى	فى أساطير شاعر أغريقى
قلت لا تعجبى فما أنا إلا	شبح لج فى الخفاء الوثيق
أنا يا أم صانع الأمل الضا	حك فى صورة الغد المرموق

أما الخيال فهو من أدوات الشعر التى لا يستغنى عنها شاعر فى الوجود غير أنه يختلف قوة وضعفا من شاعر لآخر وقد كان عند على طه فى أوج قوته ورائع عظمتة يسبح به فى عوالم من الرؤى والأحلام الجميلة ويخلق به فى آفاق رحبة من دنيا الابتداع فبأتى لنا بالعجيب من الصور والمبتكر من الفنون كملحمته الشعرية « أرواح وأشباح » وهى كتاب أفرده لحوار من الشعر بين آلهة الإغريق القدماء فى عالم الأرواح وبين شخصيات خرافية وآلهة شرقية وحد بينها هذا الحوار الذى رمى إلى تصوير حياة الشاعر ومصادر إلهامه .

وفى ديوانه « زهر وخمر » يقدم لنا فى قصيدته « حانة الشعراء » صورة مماثلة رائعة الخيال تجمع بين السمراء والبيضاء وبين ساكنة الأرض وساكنة السماء وقد تعمد أن يجعل أهل الفن يقبلون على فن راقصة زنجية معجبين فتحقق « ثينوس » ربة الجمال لانصرافهم عنها وهو فى كل ذلك يرمز إلى الصراع القائم والذى ازداد عنفا فى عصرنا الحالى بين ارستوقراطية الفن والاتجاه به نحو الجماهير لمحاولة السمو بأزواقها . . فاستمع إلى بعض ما قال :

هى حانة شتى عجائبها	معروشة بالزهر والقصب
فى ظلة باتت تداعبها	أنفاس ليل مقمر السحب
« باخوس » فيها وهو صاحبها	لم يخل حين أفاق من عجب

* * *

إبريقه - حلى من الدرر	يزهى به قدح من الماس
وكأن ما حوله من صور	متحركات ذات أنفاس
تركت مواضعها من الأطر	ومضت فى شبه أعراس

* * *

أو تلك حانته ؟ فواعجبا
ومن الخيال أهل واقتربا
فى موكب يتمثل الطربا
وبكل ناحية فتى وثبا
يتوهجون صباة وصبا

أم صنع أحلام وأهواء ؟
«فينوس» خارجة من الماء
ويميل من سحر وإغراء
متعلقا بذراع حسناء
يتمثلون غريب أزياء

جلسوا نشاوى مثلما قدموا
يتهمسون وهمسهم نغم
إن تسأل الخمار قال همو

يترقبون منافذ الباب
يسرى على رنات أكواب
عشاق فن أهل آداب

وتللفتوا لما بدا شبح
سمراء بالأزهار تتشع
ومشت تراقصهم فما لمحو
وسرى بسر رحيقه القدح
وشدا بجو الحانة الفرخ

فنانة دلفت من الباب
ألقت غلالتها بإعجاب
إلا خطى روح وأعصاب
فى صوت شاجى اللحن مطراب
لآلهة فرت من الغاب

هى رقصة وكأنها حلم
الكأس فيها وهى تضطرم
زنجية فى الفن تحتكم ؟
فأجابت السمراء تبتسم

وإذا بفينوس تمد يدا
قلب يهز نداؤه الأيدا
قد ضاع فن الخالدين سدى !
الفن روحا كان ؟ أم جسدا ؟

ولم يقتصر أثر البيئة على شاعرنا فى توجيه مطالعته نحو الثقافة اللاتينية ومتابعة كبار أدباء عصره كمطران والزيات وغيرهما بل نراه يبالغ فى اقتفاء آثار هذه الثقافة وخطوات هؤلاء الأدباء فيحن إلى ارتياد منابع هذه الثقافة والنهل منها وما إن تيسر له أسباب الرحلة حتى يبادر بالسفر إلى أوروبا فيرتادها عام ١٩٣٣ ويعاود السفر إليها أربع مرات آخر فى عام ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وهو فى ألمانيا عام ١٩٣٩ .

ولعله فى رحلاته إلى أوروبا قد فكر أيضا فى الابتعاد عن قيود البيئة والتطلع إلى ما فاتته فى وطنه من أسباب اللهو والملذات التى تحوطها فى مصر بعض القيود والمواضعات .

ولقد ظهرت آثار هذه الرحلات فى شعره وانتشرت صورها فى دواينه وأول ما انطبع فى مخيلة الشاعر هو الفارق فى نظره بين ما رأى من جمال الطبيعة والإنسان هناك وما خلفه وراءه فى وطنه فذهب يقارن بينهما فى قصيدته عن بحيرة كومو بوادى اللمباردى الإيطالى :

شاعر النيل طف بها غنها كل مبتكر
الثلاثون قد مضت فى التفاهات والهدر
فتزود من النعم يم لأيامك الآخر
أين وادى النخيل أم قاهرياته الغرر
لا تقل أخصب الثرى فهنا أوراق الحجر^(١)

وتنتهى به هذه المقارنة إلى تمنى الهجرة من وطنه إلى هذه المربع الجميلة لولا أحبة بشاطيء النيل حبهم أقوى من هذه الأمنية وآثار راحلين أعزاء :

(١) ليالى « الملاح التائه » .

آه لولا أحبة	نزلوا شاطئ النهر ^(١)
ورفات مطهر	وكرم من السير
لتمنيت شرفة	لى فى هذه الحجر
اقطع العمر عندها	غيروان عن السطر
فلقد فاز من رأى	ولقد عاش من ظفر

أجل لقد فاز من رأى لكن الذى يظفر ببغيته هو الذى عاش حياته
حقاً . . . وعلى طه يحس وقد تخطى الثلاثين أنه قد أضاع العمر فى وهم
باطل وخيال لا طائل وراءه . . . بينما هناك فى أوربا حياة وممتعة فليسرع
باغتنامهما قبل أن تضيع البقية الباقية من العمر ويكفيه ما قاساه من
حرمان :

ليالى البحر فى « كبرى »	أم الفتنة فى البحر
وجنيات بحر الروم	أم دنيا من السحر
على شط من الأحلام	والأنغام والزهر
تنفس جوها عطرا	يفضضه سنا البدر
أريج البرتقال به	ونفح العنب النضر
أم الآلهة العشاق	بين الموج والصخر
أهلؤوا تحت أشعة	تقل عرائس الشعر
نشاوى الحسن والنور	وبعض النور كالخمر
تنهد حين أبصرهم	محب موغر الصدر
أقام الدهر موتورا	من الحرمان والهجر

وإذا كان جمال « كبرى » قد شغل جانباً من هذا القصيد فإننا نراه

(١) ليالى « الملاح التائه » .

فى أنشودة أخرى يفرغ نفسه كلها للحب ونشوته ويدعو رفاقه لاغتنام
ساعته :

يا رفاقى هذه الساعة من حلم الزمان
إن هذا زمن الحب فضجوا بالأغاني
ارفعوا الأقداح ملأى واشربوا نخب الحسان
فالربيع السمح يدعوكم إلى أقرب حان

* * *

الربيع المرح الجذلان يختال فحوراً
إنه الحسن الذى يملأ بالحب الصدورا
كيف لا نقطف منه الثمر الحلو النضيرا
أنت أيتها الشمس املأى الآفاق نورا^(١)

ورغم هذه النشوة الغامرة التى يحسها الشاعر فى تلك البيئة
الجديدة والانطلاق إلى تحصيل المرح والحب فهو لا ينسى مصريته بل نراه
يعتز بقوميته ووطنه فيخاطب صاحبه إلى بحيرة كومو بإيطاليا وهى
أمريكية بقوله :

يا ابنة العالم الجديد صلى علما غبر
فى دمي من تراثه نفحة البدو والحضر
وأغان لمن شدا ومعان لمن فخر

لكن على طه الشاعر يرى فى هذه البيئة الجديدة عليه أشياء أخرى
غير ذلك .. إنه يحس أن هذه البيئة تطفئ عليها المادة وتصيب المادية
جميع مظاهرها حتى أديها ... لقد نحى المذهب الابتداعى الذى يسود
فى وطنه الأصلي عن مكان الصدارة هنا وتغلب عليه مذهب جديد يوائم

(١) أغنية الحب من ديوان « زهر وخمر » .

هذه البيئة بعد عام ١٩٣٠ .٠ لقد كانت الواقعية هى الغالبة فى الأدب الأوروبى عامة .

ولعل على طه قد اقتنع بأن المذهب الواقعى فى الشعر والأدب هو الأنسب لتلك البيئة المادية وهو الأفضل للملائمة التطور العصرى فى مصر أيضاً لأنه تطور نحو المادية يسير فى اتجاه مضاد للخيال الابتداعى لكنه عاش بعدها مترددا بين الطريقتين حتى إن القصيدة الواحدة تحس إذا قرأتها بحيرة كاتبها هذه ففى قصيدته « راقصة الحان » تراه يصف الراقصة وصفا واقعيا رائعا وينقل لنا صورة حية لرقصتها فيقول :

تضم الوشاح وتلقى به	وفى خطوها عزة واختيال
تمد يديها وتثنى —————	وترتد فى عوج واعتدال
كحورية النبع تطوى الرشاء	وتجذب ممتلئات السجال
محيرة الطيف فى مائج	من النور يغمرها حيث جال
على إصبعى قدم ألهمت	هبوب الصبا ووثوب الغزال
وتجرى ذراعين منسابتين	كفرعين من جدول فى انشبال
كأنهما حولها ترسمان	تقاطيع جسم فريد المثال
تلوى وتلهو كلُّها بة	تراقص قبل غناء الذبال
وتعلو وتهبط مثل الشراع	ترامى الجنوب به والشمال
وتعدو كأن يدا خلفها	تعذبها بسياط طوال
وتزحف رافعة وجهها	ضراعة مستغفر فى ابتهاال
وتسقط عانية للجبين	كقمرية وقعت فى الحبال ^(١)

والراقصة فى اندفاعها فى تمثيل هذا الدور لا تحس الواقع حولها وما يعتلج فى صدور النظارة من نهم ورغبة .

فليست تحس اشتهاؤ النفوس وليست تحس عيون الرجال
لكن الشاعر وسط هذا الواقع وفى هذا المشهد الحسى يرى بعين
خياله ويعتقد أن لهذه الراقصة رسالة روحية سامية فيقول لنا :

وليست ترى غير معبودها على عرشه العبقري الجلال
دعاها الهوى عنده للمثول وما الفن إلا هوى وامثال
وفى روحها نشوة حلوة كمهجورة منيت بالوصال
ومع هذا فالشاعر يلح فى هذه الواقعية الجديدة ويلقى بروحه فى
أُتونها ويجد لذة فى استجلاء صورها فتراه يقول فى قصيدته « الحية
الخالدة » (١) واصفا هذا اللقاء الجسدى العارم :

ولفت ذراعيـن كالحيتين على وبى نشوة لم تطرُ
وقد قربت فمها من فمى كشقين من قبس مستعر
أشم بأنفاسها رغبة ويهتف بى جفنها المنكسر
تبينت فى صدرها مصرعى وآخرة العاشق المنتحر

* * *

هو الحب ؟ لا . . بل نداء الحياة تلبيه أجســــــــــــدا الظامئة
يخف دمي لصداه الحبيب وتدفعــــــــــــنى القدرة الهازئة
لكنه بعد هذا الاندفاع نحو الواقعية ونحو النهل من اللذات يحس
اغترابا عن بيئته الحقيقية وتنكراً لطبعه الأصيل ويستشعر ندما بعد أن
تأثم فنه حين عب من الخمر وتعذب شعوره حين اقترب من النار فيصبح :
أخمر ونار ؟ لقد ضاق بى كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لهبا ؟ بل أشم رائحة الجسد المحترق !!
لقد كانت رحلاته إلى أوربا نقطة تحول فى اتجاهه الشعرى لا شك

(١) أرواح وأشباح .

وبدء لإيغاله فى الواقعية الفنية التى انتهجها فى الفترة الأخيرة من حياته إلا أنه كثيرا ما يغلبه الطبع الأصيل فيرتد شاعرا رومانسيا فى الكثير كما تجرده محاولة استحداث الاتجاه الواقعى فيأتينا بشعر تغلب عليه روح الصنعة والتهافت كقوله يحدث زهرات هياها فى بيته وكان على موعد مع فاتنة أخلفته :

طال انتظارى ومضى موعدى وأنت مثلى ترقبين المساء^(١)
كم لك عندى فى الهوى من يد يا زهراتى أنت رمز الوفاء

* * *

عما قليل سوف تلقينه أجمل ما تصبو إليه العيون
يطرق بابى معلنا أنه كل اضطبار فى هواه يهون
أو كقوله :

تسألنى حلوة الميسم متى أنت قبلتنى فى فمى؟^(٢)
تحدث عنى وعن قبلة فىا لك من كاذب ملهم
فقلت أعابثها : بل نسيت وفى الثغر كانت وفى المعصم
سلى شفتيك بما حسته من شفتى شاعر مغرم

شاعريته

حدثنى الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر^(٣) بأنه بدأ يقرض الشعر وهو دون السادسة عشر من عمره ونشرت أولى قصائده فى « السفور » عام ١٩١٨ أى وهو دون السابعة عشر وقد أخذ عليه الأستاذ الزيات حينئذ ما جاء فى القصيدة من هنأت لغوية ونصحه بأن يرفد قريحته بمادة اللغة وآلة الفن ولعل هذه الأخطاء اللغوية هى أهم ما عابه النقاد من شعر على طه ولقد كان مرجعها ولا ريب بعد ثقافته بعدا كبيرا عما ينمى فيه هذه المادة فهو قد تعلم تعليما صناعيا فنيا لا تعليما أدبيا لكنه رغم

(٣) مدير الثروة الصناعية بمصلحة الفلاح .

(١ ، ٢) زهر وخمر .

ذلك قد استجاب لنصيحة الزيات حتى إن شعره الأخير قد انعدمت فيه
هذه الأخطاء التي لا تنتقص من شاعريته .

وَشَعْرُ الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه الصافية ذات الطباع الهادئة
والخصال اللينة التي تنأى عن العنف حتى فى الوقت الذى يجمل فيه
العنف والثورة . . ولتأمل معنى هذه الآيات :

أخى ! جاوز الظالمون المدى	فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم بغصبون العروبة	مجد الأبوة والسؤددا
وليس بغير صليل السيوف	يجيون صوتا لنا أو صدى
فجرد حسامك من غمده	فليس له بعد أن يغمدا
أخى أيها العربى الأبنى	أرى اليوم موعدا لا الغدا

إنها لحظة حاسمة فى تاريخ العروبة تلك هى حرب فلسطين ومع
خطورة الموقف وما يتطلبه من ثورة عنيفة جارفة تهز الشاعر وتستنهض
الهمم والعواطف نرى على طه يدعو العرب إلى الثورة لكنها دعوة رقيقة
تحتاج العقل والمنطق وتدعوهم إلى القتال لأن الأعداء لن يستجيبوا إلا
لصوت السيوف ولا يصح أن نتركهم يغتصبون مجدنا وديارنا .

يقول الأستاذ أنور المعداوى صديق الشاعر الحميم يصفه « لقد كان
على طه^(١) واحدا من هؤلاء الذين يفتحون القلب على مصراعيه أمام
المخلص من الأصدقاء حتى ليخيل إلى من يعرفه منذ شهور أنه يعرفه منذ
أعوام وأعوام ، كان واضحا فى فرحه كما كان واضحا فى حزنه وكان
واضحا فى سره كما كان واضحا فى جهره حتى لو أنه حاول أن يصمت
لكان صمته فنا من الكلام أو حاول أن يكتم لكان كتمانته ضربا من البوح
والإفشاء . ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت
فى شعره سلسلة من الاعترافات . . واستمع إلى هذا الاعتراف من كتابه

(١) العدد ١٦٨ من الرسالة .

(شرق وغرب) وهو حديث ينبع من قلب أبيض كزهرة الحقل
البيضاء : •

سيرات وأترعت بالمدامة كأسى	إن أكن قد شربت نخب كث
مغرم بالجمال من كل جنس	وتولعت بالحسان لأنسى
ت على حالتى رجاء ويأس	وتوحدت فى الهوى ثم أشرك
س على لذة شياطين رجسى	وتبذلت فى غرامى فلم أحب
من طليقاً والطهر يملأ حسى	فبروحى أعيش فى عالم الفد
لم أرجى الشراع أو فيم أرسى	تائها فى بحاره لست أدرى
ساء نمتها السماء من كل قبس	لى قلب كزهرة الحقل بيض
وعليها وحدى أغنى لنفسى	هو قيثارتي عليها أغنى
أنطقتها بكل رائع جرس	لى إليها فى خلوتى همسات

* * *

وهج النار فى عواصف خرس	كم شفاه بهن من قبلا تى
ضحك يومى منه وإطراق أمسى	ووساد جرت به عبراتى
راء كم أشعلت لىالى أنسى	أيهدى الخدور أنوارك الحم
من سوى ذلك الرماد برأسى	أحرقتهن ! آه لم يبق منها

هذا شعر صادق كل الصدق وأصدقه ذلك الوساد الذى جرت به
العبرات . . ولا بد لك من أن تقف معنا طويلا عند هذا البيت من هذه
القصيدة الاعترافية لأن فيه مفتاحا رئيسيا يفصل بين فترتين من حياة
الشاعر فترة تحفل بالدموع وفترة تعج بالبسمات الأولى فترة الأمس وما قبل
الثلاثين والثانية فترة اليوم أو ما بعد الثلاثين . . وها هو ذا يعترف بأن يومه
يضحك لمنظر العبرات فى حين يأسى لها الأمس ذلك الأسى المعبر عنه
بالإطراق » .

وكما أن شعر الشاعر مرآة تنعكس فيها صورة نفسه كذلك نفس

الشاعر الحساسة مرآة تنعكس فيها صور بيئته ويتردد في جوانحها صدى أحداث عصره ولذا نرى على طه يسجل الفترات الوطنية في تاريخ أمته وقد عاصر ثورة سنة ١٩١٩ التي اشتعلت وهو في فجر شبابه ومقتبل العمر وكانت له فيها جولات من الشعر موفقة ولقد ظل ينبه المصريين بل والعرب بل والشرقيين عامة ويدعوهم للأخذ بأسباب القوة :

دعوها منى واتركوه خيالاً فما يعرف الحق إلا النضالا
بنى الشرق ماذا وراء الوعود تطل يمينا وترنو شمالا ؟؟
وما حكمة الصمت فى عالم تضج المطامع فيه اقتتالا
زمانكمو جارح لا يصف رأيت الضعيف به لا يوالى

ونرى الشاعر فى سنى الحرب العالمية الأخيرة وقد تحقق للعالم إلى أى جحيم تقوده هذه المدنية المادية ووقف حائرا يتلمس خلاصا من سكير المادة وأخذ يولى وجهه شطر روحانيات الهند والصين والشرق عامة . . نرى الشاعر ينبه فى مطلع العام الهجرى ١٣٦٢ إلى ما شرعه الإسلام من اغتراب وعذاب وصراع فى سبيل المبدأ الحق والعدل الإلهى . . ويدعو إلى النهج الإسلامى نهج الإخوة والمحبة :

كن بشير الحب والنور إلى مهج كلمى وأكباد دوامى
صفحات من صراع خالد ضمنت كل فخار ووسام
لم تتح يوما لجبار طغى أو لباغ فاتك السيف عرام
بل لداع أعزل فى قومه مستباح الدم مهدور الذمام
زلزل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم وآثام
تسع الناس على ألوانهم لم تفرق بين آرى وسامى

حاطم الأصنام ! هل منايد تذر الظلم صديعا من حطام ؟

لم تطقها حجرا أو خشبا ويطاق اليوم أصنام الأنام^(١)

وفى الحرب أيضا حد الرقيب من حرية الصحافة والكتّاب واختصرت
أزمات التموين من حجم الصحف فضاقت بما لديها من مواد وأول ما
اختصرت الشعر وقد عُدَّ من الكماليات فى تلك الفترة وقد عبر عن محنة
الشعر وصورها تصويرا فكها لطيفا فى قصيدته « سمر »^(٢) :

يا وحى شعرى أين أنت فى أى زاوية ركنت ؟

هل رحت فى إغماءة أم بالمخدر قد حقنت ؟

أم نمت أم نام الزما ن أم اعتقلت أم انسجنت ؟

أم خفت من قلم الرقيب ب فما أشرت وما أبنت ؟

أم هل سقيت (كزوزة) أم هل حسوت (البرمنت)^(٣)

أم قد شربت زجاجة من صنع بار (الكونتنت) ؟^(٤)

أم فى البنوك لأزمة حلّت بأهلك قد رهنت ؟

وهو فى حرب فلسطين يسجل بطولة الجنود المصريين الذين حاصروهم
الأعداء فى قرية الفلوجة عدة أشهر فصمدوا للحصار ولم يهنوا ولم
يستسلموا فاستحقوا من الشاعر التحية :

هاتوا حديث الحرب كيف تطاحت لكمو منازعها وهان عصيها

فى قرية محصورة كسفينة فى لجة هاجت وماج غضوبها

لم تدر فيها الريح أين قرارها ؟ والشمس أين شروقها وغروبها ؟

ولقد كان لحديث الحرب المتصل أثر فى نفس الشاعر وخياله الذى

(١ ، ٢) زهر وخمر .

(٣) شراب البرمنت .

(٤) فندق الكونتنتال بالقاهرة .

جمع به وسبح فى تاريخ العروبة ينقب عن صورة من البطولة تبرز ما تناقله الناس فى الحرب العالمية الأخيرة من أحداث موانئ الغزو وفرق الفدائيين « الكوماندو » فلم يجد أروع من غزوة طارق بن زياد للأندلس التى قام بها من ميناء طنجة فى إفريقيا فى أسطول يقل اثنى عشر ألف محارب منذ أكثر من ألف ومائتى عام وسار به إلى الصخرة السماء التى نزل بها وسميت باسمه وحقق فى غزوته نصراً عظيماً فى أغنى وأجمل وأقوى بقاع القارة الأوربية بعد أن حطم أسطوله ليوجد رجاله بين أمرين أحلاهما قتال العدو :

أشباح جن فوق صدر الماء	تهفو بأجنحة من الظلماء ؟ (١)
أم تلك عقبان السماء وثبن من	قن الجبال على الخضم النائي ؟
لا بل سقين لحن تحت لواء	لمن السفين ترى وأى لواء ؟
والشرق من بعد حقيقة عالم	والغرب من قرب خياله رائى ؟
ضحكت بصفحته المنى وتراقصت	أطياف هذى الجنة الخضراء
ووثبت فوق صخورها وتلمست	كفاك قلباً ثائر الأهواء
فكأنما لك فى ذراها موعد	ضربته أندلسية للقاء
ووقفت والفتيان حولك وأنبرت	لك صيحة مرهوبة الأصداء
هذى الجزيرة إن جهلتم أمرها	أنتم بها رهط من الغرباء
البحر خلفى والعدو إزائى	ضاع الطريق إلى السفين ورائى
وتلفتوا فإذا الخضم سحابة	حمراء مطبقة على الأرجاء
قد أحرق الربان كل سفينة	من خلفه إلا شرع رجاء
وأتى النهار وسار فيه طارق	يبنى للملك الشرق أى بناء

(١) زهروخمر .

ومهما تكن المناسبة التى يتحدث عنها الشاعر فإنه لا يتحدث إلا عن شعور صادق وإحساس عميق بخطورة هذه المناسبة وأهميتها من وجهة نظره ولذا ندر فى شعر على طه المديح ولم يمدح إلا من استحق فى نظره المديح وكان له فى قلبه مكانة ومحبة فكان مديحه له آية من آيات الفن الرفيع ومن أمثلة هذا المديح قصيدته « الشاعر » التى قالها فى صديقه الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى نقتطف منها هذه الأبيات :

عبرى من النغم	رجعه الحب والألم ^(١)
نبعه قلب شاعر	شارف النور فى القمم
ورأى مولد الحيا	ة على شاطئ العدم
ذوب الحب قلبه	وبرى جسمه السقم
وجلا الغيب سره	بين عينيه وارتسم
فانظروا أى شاعر	هو فى الحقل بينكم
ذلك المبدع الروائع	فى صورة الكلم
فاسمعوا الآن شعره	وتملوه عن أم
ضامر الجسم واسمه	يسع الكون بالعظم
وقصير ومجده	باذج كالضحى أشم
ذلك الشاعر الذى	فاز بالحب واتسم
خالد بالذى شدا	خالد بالذى نظم
ذاك ناجى وحسبه	أنه الشاعر العلم

كما أن شعر على طه يمتاز بخاصية التنسيق التى تنبعث من مزاجه كمهندس يضع تصميم المبنى أولا ثم يشرف على تنفيذه فى حدود هذا

التصميم فتأتى الصورة الشعرية فى نسق هندسى محدد المعالم والأهداف وكأنها تسير على أبعاد وزوايا هندسية رائعة لا تحيد عنها ولذلك قلما تجد فى صوره الشعرية ما ينبو عن الذوق أو يصدم البصر . . وإليك الغروب كما يصوره وقد توارى النهار خلف ستار من الغمام المخضب بلون الشفق الأحمر فعم الاحمرار المنعكس على الغمام الأفق فبدت الطيور فى السماء وهى متجهة إلى أوكارها كما لو كانت تسبح فى لجة من عقيق . . تلك لوحة فنية كاملة بجميع أبعادها وألوانها يقدمها لنا الشاعر المهندس :

أقبل الليل واتخذت طريقى	لك والنجم مؤنسى ورفيقى
وتوارى النهار خلف ستار	شفقى من الغمام رقيق
مد طير المساء فيه جناحا	كشراع فى لجة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى الليـ	ل ويجتاز كل واد سحقيق
عاد من رحلة الحياة كما عد	ت وكل لو كـره فى طريق

ولا تمتاز هذه الصورة بالتنسيق فحسب بل والأصالة الشعرية لأن على طه سما بشعره عن التقليد والمحاكاة واتجه إلى مشاعره وخواطره يبرزها للناس إبرازا يتسم بالبساطة وصدق الأداء .

ولقد كان لعلى طه رقة فى الشعور مفرطة ووجدانا مرهفا سريع التأثر بما يقع من أحداث له أول للناس . . فيأسى ويحزن ويشتد أساه لو صادف فى طريق الحياة بائسا أو توهم أن إنسانا ما ممن يلقاهاهم يعانى ألما أو شدة . . ففى ذات مرة علم أن رئيسة الفرقة الموسيقية فى أحد مطاعم القاهرة التى كان يتردد عليها عمياء فحز فى نفسه ذلك العلم وأمضه وأوهمه أنها شقية بفقد بصرها وتستحق رثاء وعطف الشاعر كثيرا فذهب يصور ما تعانيه فى قصيدته « الموسيقية العمياء » التى تواصل بكاء خطبها . . ويأخذ هو بيدها ليريها مواضع الجمال فى الكون التى تستطيع إن تستمتع بها بلمسها بيديها دون حاجة للنظر ويدعو الأقدار للرفق

بها والطبيعة والكون كله لمواساتها ويبكى هو قبل كل شيء لهذا الخطب
الفادح :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضى^(١)
إذا ما أنت الريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكى لرهرة تبكى بدمع غير مرفض

* * *
زواها الدهر لم تسعد من الإشراق باللمح
على جفنين ظمآنين من للأنداء والصبح
أ مهد النور ما الليل قد لفك فى جنح ؟
أضىء فى خاطر الدنيا ووار سناك فى جرحى

* * *
أرى الأقدار يا حسناء مثوى جرحك الدامى
أريها موضع السهم الذى سدده الرامى
أنلى مشرق الإصباح هذا الكوكب الظامى
دعيه يرشف الأنوار من ينبوعها السامى

* * *
وخلى أدمع الفجر تقبل مغرب الشمس
ولا تبكى على يومك أو تأسى على الأمس
إليك الكون فاشتفى جمال الكون باللمس

(١) زهر وخمر .

خذى الأزهار فى كفيك فالأشواك فى نفسى

* * *

ومن آدمك المحبوب ؟	أو ما صورة الصب ؟
لقد ألهمت والإلهما	م يا حواء بالقلب
هو القلب هو الحب و	ما الدنيا لدى الحب
سوى المكشوفة الأسـ	رار والمهتوكة الحجب

* * *

سلى القيثار بيـ	من يدك أى ملاحن غنى
وأى صباية سالت	على أوتاره الحنا
حوى الآمال والآ	لام والفرحة والحزنا
حوى الآباد والأكـ	وان فى لفظ وفى معنى

بل إن الشاعر أبصر ذات فجر جديد فتاة تسير فى الطريق بجوار بيته
تلفت خشية أن يراها رقيب فخيّل إليه أنها بائسة من نساء الهوى أو فتاة
عائرة الحظ فى حبها فهم أن يسعى إليها ليخفف عنها آلامها الموهومة
وذهب يصور قصتها شعرا رائعا فى قصيدته « سارية الفجر » :

عبرت بى فى صباح باكر	فتنة العين وشغل الخاطر ^(١)
وبعينيها رؤى حائرة	بين أسرار مساء غابر
صورت من حاضر العيش ومن	أمسها قصة حب عاثر
من تراها ؟ وإلى أين ؟ ومن	أى خدر طلعت أو سامر ؟
تقطع الإفريز من ناحيتى	كأسير هارب من أسر
تتقى الأعين أن تبصرها	وهى لا تألو التفات الحائر
لا تبالى بلل الثوب ولا	لفحة البرد الشفيف الثائر

(١) زهر وحرمر .

أو تبالي قدماها خاضتا مسرب الماء الدفوق الهامر
أنت يا سارية الفجر اسمعى دعوة الروح البرىء الطاهر
وأنا الشاعر قلبى رحمة لفريسات القضاء الجائر
إن نأت دارك يا أخت فما بعدت دار الغريب العابر
إن قلب على طه الكبير حملّه أكثر مما يحتمل وجعله يعتقد أنه
مسئول عن كل بئس أو محزون بل إن نزعتة الإنسانية تتعدى بيئته
المحدودة لتشمل العالم كله ببرها ورحمتها . . ولقد بلغ الذروة فى
قصيدته « ليلة عيد الميلاد »^(١) التى كشف فيها عن الناحية الإنسانية
العالمية فى نفسه وأبرزها كتابا مفتوحا للناس يدعوهم إلى السلم بعد أن
ذاقوا من ويلات الحرب العالمية الأخيرة صنوفا وألوانا .

إنها ليلة الميلاد فليذكّر الشاعر الناس بتعاليم المسيح عليه السلام التى
سداها الرحمة ولحمتها العطف والتسامح مع الباغى والمعتدى والمسيء . .
إنه يسأل السيد المسيح الرجعة إلى الأرض ليعيد على القوم وصاياه .
وأخص هذه الوصايا المحبة والإخاء .

وفى القصيدة فوق ذلك تصوير دقيق رائع لبيئة الحرب المقبضة وما
استحدثته أساليبها من ظلام شامل فى المدن وعكوف فى الخنادق فى انتظار
الموت من السماء أو الأرض . . وأخيرا لماذا القتال ؟ وعلام يقتل الإنسان
أخاه الإنسان ؟ إنها خدعة كبرى لحساب الزعماء . . ؟ :

اسمعى ايتها الروح ! أفى الكون غناء ؟
وانظرى ! . . . هل فى نواحي الأرض بالليل ضياء ؟
لا تراعى إن يكن قصر عنك البشرء
فالنواقيس التى حيتك أشجاها القضاء

الشجى رجع صـداها والأسى والبرحاء
والتراتيل من البيعة نوح وبكاء
رددتهن الثكالى واليتامى الشهداء
والمصابيح التى كان بها يزهى المساء
خنقتها قبضة الشر فما فيها ذماء
صبغوها بسواد فهى والليل سواء
مأتم للنور قام الويل فىه والشقاء
تحت ليل ماله بدءا ولا منه انتهاء
أيها المبعوث ، لا ضنّت برجعك السماء
انظر الأرض ٠٠ فهل فى الأرض حب وإخاء
نسى القوم وصاياك وضلوا وأساءوا !
وكما باعوك يا منقذ بيع الأبرياء !!

* * *

ليلة الميلاد ، والدنيا دموع ودماء
فى ربوع كان فيها لك بالسلم ازدهاء
باسمه يشدو المغنون ويشدو الشعراء
أين ولت هذه الفرحة ؟ أم أين الصفاء ؟
لم تصافحك من الأطفال أحلام وضاء
رقدوا غير عيون قد ريع منهمـن الفضاء
ترقب الآباء هل عادوا ؟ وهل حان اللقاء
بين أيدي أمهات بتن والليل جفاء

فى طوايا النفس يبكين وقد عز الرجاء
ويحهم أين تراهم ، هؤلاء الأشقياء ؟
هم وراء الليل أجساد وأرواح هباء
ووجوه رسم الرعب عليها ما يشاء
خندقوا فى مأزق الموت وما منه نجاء
بين موج من سكير يتسوقاه الفناء
وجبال من ركام الثلج يرسبها الشتاء
وحديد طائر يحذر مسـراه الهواء
وعجيب ! فيم للموت يساق التعساء ؟
فى سبيل الخبز ؟ والخبز اكتساب ورضاء ..
فى سبيل الحق ؟ والحق لدى القوم طلاء ..
فى سبيل المجد ؟ والمجد من البغى براء ..
أوفى المجزرة الكبرى تنال المجد شاء ؟
كذب الباغى وللسيف بكفيه مضاء
وخداع كل ما قال ، وزور وافتراء .. (١)

هذه الرقة المتناهية والشعور السامى النبيل قد زادت هما الموسيقى
عمقا وتأسلا فى قلب على طه الذى شغف بالموسيقى طول حياته وأجاده
وكان من العازفين الماهرين على البيان وطالما أحيا الحفلات فى داره يعزف
لضيوفه .. كما كان هو حريصاً على حضور حفلات الموسيقى وارتياح
أماكن عزفها وكان يحب تناول العشاء غالباً فى مطعم به فرقة موسيقية .
ولم يكن هذا عجيباً من على طه لأن من كان فى مثل شاعريته

(١) زهروخمر .

ومزاجه يستطيع تذوق الموسيقى وتفهمها وهى لغة العاطفة العالمية التى يتخاطب بها العالم أجمع دون وساطة أو ترجمان .

وللطبيعة موسيقاها بل كل ما فيها أنغام متفرقة من لحن كبير تتردد أنغامه على قيثاره على طه فتشيع فيها قوة ويضفى هو عليها من قلبه روحا فتتحرر من جمودها وتنبض بالحياة وتصبح خليفة بنجوى الشاعر وصحبته بل وبأن تكون له معهداً وأستاذا :

معهدى هذه المروج وأستاذى ربيع الطبيعة الفينانة

وفى بحيرة « كومو » يقول :

ها هنا يشعر الجماد ويوحى لمن شعر

أجل لأن الطبيعة كلها حياة وحركة وهى تتألق لمرتابيها ٠٠ فهى تارة تتنقب بالغمام وطورا تسفر لمطلع القمر أو هى تلبس حلة السهر وهى تغرى الناس وتشجعهم بالقبل :

البحيرات والجبال قد	مد توشحن بالشجر
وتنقبن بالغمام	م وأسفرن بالقمر
والبرونات غادة	لبست حلة السهر
نثرت فوقها الדיا	ركما ينثر الزهر
وعبرنا رحابها	فأشارت لمن عبر
هاكها قبلة فمن	رام فليركسب الخطر

بل إن على طه يبدأ قصائده بالحديث عن الطبيعة بدلا من النسيب الذى كان المتقدمون يستهلون به قصائدهم ٠٠ لأنها هى الرفيق الوفى الذى يستجيب أبدا لندائه فتراه فى قصيدته « الموسيقى العمياء » يستهلها بقوله :

إذا ما طاف بالأرض	شعاع الكوكب الفضى
إذا ما أنث الريح	وجاش البرق بالومض

إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبكى بدمع غير مرفض

الغزل فى شعره

سألت شقيق الفقيد الأستاذ عبد الحميد طه عن مكانة المرأة فى حياته فكتب إلى يقول (كان ينفر من الزواج وإن كان فكر فيه مرارا لأنه يعتبره كقيد قد يحد من هويته وعبقريته وحرية فعاش حياته الدنيا كالطائر الطليق يحلق فى أجواء الطبيعة ويستشف أسرارها ومكنوناتها يتمتع بأطاييبها حتى إذا ارتوت نفسه أخرجها الحنا وسحرا) .

ولم أجد أى دليل على أن عليا قد أحب الحب العنيف الذى يبتغيه الشاعر لذاته وللذعته الموحية أو هذا الحب العفيف الذى يهدف إلى رباط مقدس بل كل ما علمت أنه خطب ابنة عم له ماتت قبل أن يقترب بها وليس لها فى شعره أثر ولعل هذه الخطبة تمت وفق تقاليد البيئة حينئذ . . أى خطبة رسمية يقوم بها سيدات الأسرة ولا دخل للزوجين بأمورها فكان طبيعيا ألا يتأثر على طه بشخصية خطيبته تلك وألا تؤثر فى شعره .

وكل ما عرفته عن علاقاته الغرامية أنه كان على صلة لفترة ما بإحدى المطربات اللائى اشتغلن بالسينما المصرية كما أنه استقدم معه فى إحدى رحلاته إحدى بنات الهوى من أوروبا ولا أظن أن مثل هذه العلاقات كانت تروى روح الفقيد الظامئة إلى الحب .

إنى أعتقد أن عليا لم يلق فى حياته المرأة التى تملأ فراغ قلبه وتشغفه حبا فيعشقها العشق العنيف ويسعى إليها سعيا حثيثا ويطلب الاقتران منها وكانت البيئة هى العامل الأول فى هذا إذ استشعر فيها الحرمان ورأى فيها الحجب المضروبة بينه وبين المرأة فانصرف عنها وظل يروض نفسه على هذا الحرمان المقيت حتى إذا ما تخطى الثلاثين انطلق ينهل من اللذات

وضاعفت رحلاته إلى أوربا من سعاره المادى فلم يعد يرى فى المرأة إلا جسدا ولذة وحتى عندما يحاول أن يتسامى فى شعره عن هذه المادية تجذبه متع الجسد إليها فيهوئ من سمائه يتلمس هذه اللذة . . . » .

يا حبيبى أقبل الليل ونادانى الغرام^(١)
أى سر لمحب لم يصوره الظلام
كل نجمة مهجة تهفو وعين لا تنام
وشعاع البدر معشوق به جن الغمام
يا حبيبى كل عيش ما خلا الحب حرام
وحرام يا حبيبى

يا حبيبى سئم الليل سكوتى واكتئابى
أنا أهواك ولكن أنت لا تعلم ما بى
لحظة بين ذراعيك فقد طال عذابى
لحظة أمزج أنفاسك بالقلب المذاب
وأغنى ويغنى لك حبى وشبابى
وسلام يا حبيبى

لكنه عند بحيرة كومو لا يرى فى صاحبتة إلا كل ما يثير فى نفسه
الرغبة الجامحة وإلا نداء صارخا للمتعة :

نحن روحان عاصفا ن وجسمان من سقر
فاعذرى الروح إن طغى واعذرى الجسم إن ثار
نضبت خمر بابل وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلو د فطوبى لمن عصر

(١) زهر وخمر .

غيم والنبع دافق يشتكى الظامىء الصدر ؟
 ولمن هذه العيون تغمرن بالـحـور ؟
 ولمن توشك الندى وثبة الطير فى السحر ؟
 كل إلف لإلفه هم بالصدر وابتدر
 عض فى الثوب واشتكى وطأة الخـز والوبر
 سـمة الطائر المعذ ب فى قـيـده نقر
 ولمن رفت المبا سم واسترسل الشعر ؟
 ثمر ناضج الجنى كيف لا نقطف الثمر
 ما أبى الخلد آدم أو غوى فيه أو عثر
 وفى شاطئء لوسرن بسويسرا يتحدث عن صديقه فى هذا الحوار
 الشعرى الجميل معترفا بأن الحرمان هو سر سورته العاطفية المشبوبة :

قلت لى والحياء يصبغ خديك • أنار تمشى بها أم دماء ؟ (١)
 ملء عينيك بافتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
 أو حقا دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وغناء ؟

* * *

قلت يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والأغانى
 ما أثارت حرارة الجسد المشتاق إلا مرارة الحرمان
 إن أجسادنا معابر أرواح إلى كل رائع فتان
 أنا أهوى روحية العالم المنظور ولكن بالجسم والوجدان

* * *

(١) حب وحرب •

ما تكون الحياة لو أنكر الأحياء فيها طابع الأشياء
أنا أهواك كالفراشة صاغتها زهور الثرى وكف الضياء
أنا أهواك فتنة صاغها المثال من طينة ومن إغراء

* * *

أنا أهواك من آثام وطهر حلم إغفاءتى وصحو غرامى
أنا أهواك دفء قلبى وينبوع اشتهاى وشوقى وغرامى
وحنانا مجسدا إن طوانى الليل وسدت صدره آلامى

* * *

وتلاقت عيوننا فتدانت لى وجن الحنان فى شفتينا
فاعتقنا فى قبلة قد أذابت جسدنا ومازجت روحينا
وتبلغ سورته الذروة فلا يرى فى ملك الثرى ودنيا الشباب وعمر
الزمان ورقيق الجنان ما يساوى لحظة فى أحضان خواء :

إذا قيل لى : هاك ملك الثرى ودنيا الشباب وعمر الزمان (١)
فما لذتى بالذى نلتها وما نشوتى برحيق الجنان
كرعشة روحى وهزأتها وصدرى على صدرها واليدان
لكن على طه يحس وسط هذه النشوة صحوة للضمير تؤنبه على
الإغراق فيها فيعتذر عن ذلك بأن الغرائز العاتية ، قد سلطت على قلب
الشاعر لتعذبه أبدا :

قلوب تلذ بتعذيبها غرائز عاتية عارمة
ترنحها سكرات الهوى وتوقظها الفتن النائمة
صحت من خمار ملذاتها تعنف أهوائها الآثمة

(١) أرواح وأشباح .

(٧ - موكب الخالدين)

أغانيه

إن أغاني على طه تسلكه فى عداد كبار الشعراء وفى مقدمة الشعراء المعاصرين لما ظفرت به من نجاح عظيم مرجعه ما امتازت به من سهولة التراكيب وعذوبتها وموسيقيتها ولما اتسمت به من طابع حزين يوائم البيئة . . مثل هذه الأسطر من أغنيته المشهورة « الجندول » :

أين من عيني هاتيك المجالى يا عروس البحر يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالى أين من واديك يا مهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال وسرى الجندول فى عرض القنال

* * *

.....

.....

أنا من ضيع فى الأوهام عمره
نسى التاريخ أو أنسى ذكره
غير يوم لـم يعد يذكر غيره
يوم أن قابلته أول مره

إن الموسيقى^(١) الذى لحنها موسيقار حزين النغم دائما يشارك على طه فى الاستجابة لمزاج البيئة وقد وضع ألحان أغنية أخرى لعلى طه « كليوبتره » وهى صورة خيالية لحلم جميل لليلة من ليالى الملكة العظيمة :

حلم عذراء دعاها حبها ذات مساء

فتغنت بشراع من خيال الشعراء

يا حبيبى هذه ليلة حبى

آه لو شاركتنى أفراح قلبى !

(١) الأستاذ / محمد عبد الوهاب .

يا ضفاف النيل بالله ويا خضر الروابي
هل رأيته على النهر فتى غض الاهداب
أسمر الجبهة كالخمرة فى النور المذاب
سابقا فى زورق من صنع أحلام الشباب ؟
إن يكن مر وحيًا من بعيد أو قريب
فصفه وأعيدى وصفه فهو حبيبى
يا حبيبى هذه ليلة حبى !
آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! (١)

كما تمتاز هذه الأغاني بالركة المفرطة فاستمع إليه فى قصيدته
« عاشقة » يعرض شكاتها على لسانها فى رقة تهز أوتار القلوب :

يا حبيبى غنت الفرحة فى كل مكان (٢)
فهنا البلبل يشدو وهناك العاشقان
غير أنى أشتكى الوحشة فى ظل التدانى
إنما روحك فى الكون وروحي توأمان
لا تدعنى أقطع الأيام وحدى وأعانى
فحرام يا حبيبى

وعلى طه بعد ذلك يقدم للناس فى هذه الأغاني صورا عصرية مما
يعرفونه ويشاهدونه ويفهمون مراميه ويتذوقون حلاوته ويتمنون الظفر
بها:

إذا ارتقى البدر صفحة النهر
وضمنا فيــــــــــــه زورق يجرى

وداعبت نسمة من العطر
على محياك خصلة الشعر
حسوتها قبلية من الخمر
جن جنوني لها وما أدري
أى معانى الفنون والسحر
تغرك أوحى بهـا إلى ثغرى

* * *

أعماله

كان على طه شاعرا مقلا لكن القليل الذى قاله إذا وزن بميزان الشعر
رجح الكثير مما قاله غيره .

وقد عني على طه فى نشر دواوينه بطبعها طبعا أنيقا وإخراجها
إخراجا فنيا رائعا من حيث تنسيقها وتصويرها ومن الممكن ضم جميع
أعماله فى مجلد واحد وأنى لأرجو أن يتحقق ذلك حتى يسهل على من
يريد دراسته الإلمام به فى يسر وسهولة .

وما أرجوه ليس بدعا بل كثير من الشعراء جمعت أعمالهم فى كتب
موحدة ومهما بلغت ضخامة أعمال على طه فلن تكون فى حجم أعمال
شكسبير مثلا وقد ضمنها دفتى كتاب واحد .

لقد كتب على طه من دواوين الشعر :

- ١ - الملاح التائه .
- ٢ - ليالى الملاح التائه .
- ٣ - أرواح وأشباح .
- ٤ - زهر وخمر .
- ٥ - اغنية الرياح الأربع .
- ٦ - شرق وغرب .
- ٧ - الشوق العائد .
- ٨ - أرواح شاردة وهو يحتوى على نثر وشعر .

كما نشرت له دار النداء بعد وفاته كتاب « حب وحرب » وهو مجموعة من المقالات والقصائد والمقطوعات المترجمة التي نشرت بمجلة النداء .

والكثير من شعره ترجمه : المستشرق الأستاذ براكنبرى Pr : Branckenbury إلى الإنجليزية .

رحم الله على طه ذلك الشاعر الذى صور بيئته أصدق تصوير وعاش حياته كما رسمها فى شعره . . فى حيرة دائمة .

هو المرج الشارد المستهام شرود الفراشة عند المساء

* * *

مراجع البحث :

- ١ - كتب الشاعر .
- ٢ - حديث الأربعاء : لمعالى طه حسين باشا .
- ٣ - وحى الرسالة : لأحمد حسن الزيات بك .
- ٤ - بحوث الأستاذ أنور المعداوى بمجلة الرسالة .
- ٥ - شوارد ما نشر عن الفقيد بالصحف عقب وفاته .

* * *

إبراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر أو الدكتور ناجى الطبيب الذى جعل من صناعة الطب شعرا وفنا إنسانيا نبيلًا ٠٠٠ أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصله محبة ومودة فعاش حياته للناس وكل ما وصلت إليه يده كان للناس مشاعا وترك لغيره الشقاء فى سبيل المادة وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس .

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ودرس فى المدارس المصرية ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيبًا فى مصلحة السكة الحديد ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضًا ثم ينصرف إلى ورقة يدون فيها بعض ما يهيجس فى نفسه من أحاسيس أو ما يجول فى خاطره من شعر ثم يطرق باب مريض آخر فيقوم بفحصه لكنه يعود إلى مكتبه ويمسك القلم ليكتب له الدواء لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طبه ولا الأطباء ، كان والد ناجى رجلاً مثقفاً وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها وكان فيها من ألوان الأدب الانجليزى الشيء الكثير وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة ، ولأترك ناجى يحدثنا عما أرادته أبوه وما أرادته مطالعته وما أرادته القدر ٠٠٠ يقول ناجى : « أراد أبى شيئاً وأراد ديكتز شيئاً وأراد كوبر فيلد شيئاً وأراد القدر أشياء غير هذه !

فقد شاء أن أكون طبيباً وليس بالطب من حرج وإنما الحرج أن يكون الشعر مركباً في طبيعة إنسان فإذا بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه في الدائرة التي لا شعر فيها ولا خيال أو إنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد وشتان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك » .

أرأيتكم كيف أن ناجي أشفق على نفسه من مهنته الطب بل لقد خشى أن يأتي يوماً ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئاً عن عالم الروح لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :
وهل يابق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء
كما قال أبو العلاء .

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجي يمارس مهنة الطب في كل مكان . . . في وظيفته وفي عيادته وفي الطريق وفي المقهى وفي مكان اللهو . . . وكان يعود مرضاه الفقراء في بيوتهم في كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً بل كان في كثير من الأحيان يشتري لهم الدواء من ماله الخاص وهكذا فهم ناجي الطب أو أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية عليه اداؤها كما يؤدي رسالة الشعر .

ولقد تأثر ناجي في حياته بتوجيه والده أول ما تأثر وكان لذلك الوالد أعظم الأثر في توجيهه وتنمية مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ عليه من الأدب العربي والانجليزي حتى شغف ناجي بالمطالعة وأكثر منها لا سيما في الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب وكان لهذه المطالعات أثرها السريع في نفسه فبدأ ينظم الشعر في سن مبكرة ثم انضم إلى جماعة « أبوللو » التي أسسها الشاعر

أبو شادى وعلا نجمه فى سماء الشعر وظهر تفوقه ونبوغه ولا شك أن رحلته إلى إنجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزي وقد ظهرت آثار ذلك فى كل أعماله الأدبية سواء فى النشر أو الشعر وفى ميله إلى الغوص إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التى تدفع الإنسان فى الحياة .

لكن ظل ناجى حياته يحس فى أعماقه بشخصيتين متناقضتين . .
الطبيب والشاعر . . العالم والفنان وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبانه حتى مزقتا نفسه .

وتراه دائما حائرا بين طبيعته حيرة أورثته ألما محضا لا يجد له منه مهربا فيصرخ مستغيثا :

ليت شعرى أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمه ؟

ولا شك عندى فى أن ناجى ما اتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق فى دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثا وراء طريق يريحه من هذه الحيرة التى اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل . . . كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما فى ذلك بصيرة الفنان النفاذة الناقدة . . . لكن الحياة عندما كشفت عن بعضها لناجى جعلته يرتاع منها ويسىء الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شىء صار مرأ فى فمى بعد أن أصبحت بالدهر عليما

آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديم

وطغت الفلسفة على حياة ناجى وصبغت كل شىء حتى صورته الشعرية فاستمع إليه فى قصيدته « الظمأ الكبير » التى يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذى يحسه ولا يجد له ريا لأنه لا رغبة له فى قدح الساقى بل فى روح الساقى :

وجوى كمشوب السعير	قسما بسرك فى ضميرى
ما فى كؤوسك من مجير	يامن أردت الرى لى
فما انتفاعى بالأخير	من خمر أولها ظمئت
وشقيت بالظمأ الكبير	إنى عييت بصبوتى
فكى القيود عن الأسير	من ذا يعين على الهجير
ولا نجاة على الغدير	لا نبع فى القفر السحيق
وأن غدا مديد كالدهور	شفتاك وعد غد
ما فى سرايك من نصير	خلى سرايك فيهما
بين القلائد والنحور	وحى على لمحاته
سرى بالمرافىء والثغور	متألق الأمواج يغـ

* * *

فى ذلك الحسن الخطير	خطر الهوى وخلوده
ومن عبابك للصخور	فمن الصخور إلى العباب

* * *

قدرى الخفى ويا مصيرى	يا مالكا حالى ويا
ولا الند أبدا يا أميرى	لا بالسلاف ولا للكؤوس
وليس للماء النمير	إنى إلى الساقى ظمأى

ونراه أخيرا ينزع إلى نوع من التصوف ويحاول ألوانا من التجرد الروحى فيتنكر للماديات فى حياته ويعيش عيشة هى أقرب إلى حياة الزاهد وتشيع هذه الصبغة الصوفية فى شعره كله حتى إذا أنشد فى الغزل فهو أقرب إلى المتصوفة منه إلى روح العصر الذى يعيش فيه . . . أسمعه يتحدث « إلى س . . . » :

همست فى خاطرى فاستيقظت روحى الحيرى وأصغت لنداها
وأنا إن لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواح حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها
قربى روحك منى قربى ظللىنى واغمرينى برضاها
وتعالى حدثينى ! حدثينى ! أنت مرأة شجونى وصداها
فهبينى ساعة الصفو التى تقسم الأيام ما فيها سواها
ثم أمضى الحياة مرة صبحها عندى سواء ومساها

حتى فى ساعة اللهو تراه ينظر إلى الراقصة فلا يقنع بما يراه من لهوها
بل يغوص فى نفسها ويبحث بين حنايا قلبها فلا يجد إلا آلاما من آلام
الحياة فيتحدث عن هذا القلب فى قصيدة طويلة جاء فيها عن هذا القلب :

صبته فى كأس وما سكبت فيه سوى أنات مذبوح

ولقد أصبح ناجى فى يوم ملء الأسماع فى مصر والشرق وسمعت
عنه الكثير الذى شاقنى إلى رؤيته حتى ساقته المقادير - منذ ستة أعوام -
إلى أسبوط فى زيارة عابرة فالتقيت به فإذا أنا أمام رجل يفيض رقة وحياء
وتواضعا حتى أنى لما هممت أن أحدثه عن نفسه وأثنى على بعض إنتاجه
قال لى مبتسماً :

« يا أخى يقول الناس على أنى بين الأطباء شاعر وبين الشعراء
طبيب » . . فما رأيت تواضعا بلغ هذا الحد :

أما شاعريته فقد كانت قوية رائعة صافية كنفسه تفيض حيوية
وإنسانية كقلبه فوسعت بيئته وأجادت التعبير عن كل ما وقعت عليه عيناه
فى هذا الوجود وهو كثير .

وكان يصدر فى شعره عن إحساس قوى عميق بالحياة وإنك لتحس
أنه يقطع الصور من نفسه ويلونها بمداد من دمه حتى الطبيعة حين

يصورها تأتي صورها مختلطة بحالاته النفسية وآماله وآلامه فاستمع إليه
يتحدث إلى البحر في قصيدته « خواطر الغروب » :

قلت للبحر إذ وقفت مساء	كم أطلتُ الوقوف والإصغاء
وجعلت النسيم زاداً لروحي	وشربت الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيه شبيها	أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت عات ونحن حرب الليالي	مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت باق ونحن كالزبد الذي	هب يعلو حيناً ويمضى جفاء

أما إذا أنشد ناجي في الغزل فهو إمام عصره في هذا الفن بلا نزاع . .
ولم لا وهو الذي تفتحت عيناء على الحب وظل حياته يلتسمه في كل
مكان ويعرض قلبه للهيبة المحرق ويحوم حول نيرانه اللافتة ويتلظى في
سعيه المشبوب .

فاستمع إلى أنات الحب الصادق ولهفة الحب وظمئه وخوفه وإشفاقه
من أن يؤذى الحبيب بنيران حبه :

يا حنانا كيد الآسى الرءوم	وشعاعاً يُشْتَهَى بعد الغيوم
أنا في بعدك مفقود الهدى	ضائع أعشو إلى نور كريم
أشترى الأحلام في سوق المنى	وأبيع العمر في سوق الهموم
لا تقل لي في غد موعدنا	فالغد الموعود ناء كالنجوم
يا جنان الخلد قدمت اعتذارى	إذ يطوف الخلد سقماً ودماراً
أيها الأمر في ملك الهوى	اعفُ عن لهفة روحى وأوارى
اشتهدى ضمك حتى اشتفى	فكأني ظامئ آخذ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدي	لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفى قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف
المتأججة فى صدره وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجى من
أهوال الحب :

عادت لطائرها الذى غناها وشدا فهاج حنينها وشجاها
أى الحظوظ أعادها لى فيها ونجى وحدتها وإلف صباها ؟
مشبوبة التحنان تكتم نارها عبثا وتخشى أن يبين لظاها !
يا إلفى المنشود سرك ذائع نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؛ أما يدلك جارف من صبوتى جاز المدى وتناهى ؟
ودموع أشعار أثرت نواحها وجمالك الوحي الذى أملاها ؟

أما الصبر الذى كان يحمل نفسه عليه حملا وهو المحب الموله الدنف
فقد صوره أبداع تصوير وأعجبه فى قصيدته « الانتظار » التى تجتزىء منها
بهذه الأبيات :

لعينيك احتملنا ما احتملنا وبالحرمان والذل ارتضينا
وهان إذا عطفت ولو خيالا وأين خيالك المعبود أيننا ؟
تعال فلم يعد فى الحى سارٍ وهومت المنازل بعد وهن !
وران على نوافذها ظلام وقد كانت تطل كالف عين !
ومنتظر بأبصارى وسمعى كما انتظرتك أيامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظارا شتائى فيه ينتظر الربيعا ؟

ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات وكأنى به
يخاطب بها حبا جديدا والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

أنت يا من جعلت روض حياتي مهد ورد إليك وردك ردًا
آية الورد أنه نفحة منك ومن عطرك الشذى استمدا
هذه باقة من الورد تجثو ملك في الرياض أصبح عبدا
يا جمال الجمال من خلد الحسن جميعا في نظرة منك تفدى
يا صباح الصباح من يملك للأضواء وصفا ولفــــــــــــــرائد عدا
ليس بدعا يا وردة العمر أن لمغناك وردة الروض تهدي
لا تظني وردا يكافئ وردا أنت أعلى حسنا وأكرم وردا
غير أنى وإن عجزت عن التقدير حاولت ما تمكنت جهدا
رامزا للوفاء بالورد وللقلب لى أعرق السرائر ودا
وإلى العيد أنت عيد لأيامى جميعا أنت الحبيب المفدى

ومن العجيب أن أرى ناقدا أدبيا ينعى على ناجى أنه عاش وحيدا فى
أحلامه وضاق شعره عن أن يسع حياة مواطنيه فيما حوله بينما لو أنصف
الناقد الكريم لرثى لناجى وأشفق عليه من الوحدة التى كان يحسها فى هذا
العالم حيث كان يفتقد دائماً صدى مشاعره فى بيئته هو الذى عاش من
أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ويقدم لهم كل ما ملكت
يمينه ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء وإذا ما عاد مكدودا بعد يوم
عمله لا يجد أحدا يشركه آراءه أو يشكو له مجهوده وكأنه شاذ فى
مجتمعه أو غريب عن عصره وبيئته فتنفطر نفسه أسى وما أروع قوله
يصور حاله :

يا قاسى البعد كيف تبتعدُ إني غريب الديار منفردُ
إن خاننى اليوم فيك قلت غدا وأين منى ومن لقاك غد ؟
إن غدا هـوة لناظرها تكاد فيها الظنون ترتعد

أطل فى عمقها أسائلها أفيك أخفى خياله الأبد ؟
 ملء ضلوعى لظى وأعجبه أنى بهذا اللهب أبرد
 ياتاركى حيث كان مجلسنا وحيث غناك قلبى الغرد
 أرنو إلى الناس فى جموعهم أشقتهم الحادثات أم سعدوا ؟
 تفرقوا أم هم بها احتشدوا وغرّروا هابطين أم صعدوا ؟
 إنى غريب تعال يا سكنى فليس لى فى زحامهم أحد
 ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحد
 من حريته فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أعطينى حريتى أطلق يدى إنى أعطيت ما استبقيت شئ
 آه من قيدك أوهى معصمى كيف أبقيه وما أبقى على
 ويشيع التشاؤم بعد ذلك فى شعر ناجى حتى يئس من الحياة ولم
 يعد يرى لوجوده معنى بعد أن توالى عليه النكبات والمنغصات فترك على
 مكتبته هذه القصيدة التى لم تتم :

أمل ضائع ولب مشرد بين حب طغى وجرح تمرّد
 وضلال مشت إليه الليالى هاتكات قناعه فتجرد
 فغدا شاحبا كيوم قتيل لم يكد يلثم الصباح المورد
 غفر الله وهما من ليال صورت لى الربيع والروض أجرد
 قاسمتنى الورقاء أحزان قلبى وشجاه وغردت حين غرد
 ثم ولت والقلب كالوتر الرا مى يتيم الدموع واللحن مفرد
 ما بقائى ؟ أرى إطاراد فنائى وانتهائى فى صورة تتجرد

وتشتد القيود ويرى ناجى من صحبه الغدر والخيانة فيسوء ظنه
 بالناس ويفكر فى الموت كالتخلص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس .

عندما تخلو ديار من رفيق وتحس السم فى كأس وساقى
عندما يكشف حظ وجهه سافر اللعنة مفقود الخلاق
عندما تمسى بظل عالقا وبخيط الوهم مشدود الوثاق
يا فؤاد انظر وفكر وأفق أى قيد لك بالأوطان باق

ولقد كان ناجى من كتاب القصة المبدعين وقد وجد فى القصة القصيرة وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه فكانت قصصه صورا حية للبيئة المحيطة به وما يختلج فى قلوب أفرادها من آمال وآلام وقد نحا فى أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم فى قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء وإبراز العوامل النفسية الخفية فى قلوبهم وإنى لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عددا .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيرا وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ينشر فيها مقالاته النثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة فتراه يوما يتحدث عن (رسالة الحياة) فينتهى من الحديث إلى قوله : « ويمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف للكمال فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطغى على نثره كما طغت على شعره فقرأه يوما يقول « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب » رحم الله ناجى فلقد قدم حياته قربانا رخيصا لفنه .

* * *